من يحمي المسيحيين العرب

فكتور سحاب

١٩٨١م

الإهداء

إلى إدمون رباط

الفصل الأول

بلى.... اضطهد المسيحيون ثلاثاً؟*

* "نهار الأحد". ١٩/نيسان ١٩٨١، بلى اضطهد المسيحيون ثلاثاً

من يقول إن المسيحيين العرب لم يعانوا الاضطهاد في تاريخهم الطويل، يناقض الحقائق التاريخية التي لا يختلف فيها اثنان.

بلى! المسيحيون العرب اضطهدوا أشد اضطهاد، ثلاث مرات في العموم، هذه المرات الثلاث هي المحطات الكبرى التي واجه فيها المسيحيون العرب، بصفتهم هذه، أوقاتاً عصيبة، لانتمائهم الديني. لم يكونوا يواجهوها لو كان انتماؤهم الديني مختلفاً.

الاضطهاد البيزنطي

في الحقبة الأولى حين اضطهد المسيحيون العرب (والآراميون والأقباط)، وهي حقبة سبقت ظهور الإسلام وامتدت قرنين من الزمان على الأقل، كانت الدولة البيزنطية تبنت المسيحية ديناً رسمياً، وأخذت تسعى إلى محاربة جميع الأديان الأخرى (منذ أواخر القرن الرابع، أيام الإمبراطور ثيودوسيوس)، بعدما ورثت تاريخا طويلاً من الاضطهاد الروماني للمسيحيين المشارقة والمغاربة. وكانت تبني الدولة البيزنطية للدين المسيحي بعد قرون من الصراع، أشاع اعتقاداً أن هذا التبني سينهي عصور الاضطهاد. وسرعان ما تبين أن انضمام الدولة إلى الدين الجديد، إنما كانت دوافعه السياسية غالبةً على الدوافع الأخرى. فأخذت بيزنطية تشكل لنفسها "طبعة" خاصة بها عن هذا الدين. وأخذت تفرض النظرية الرسمية على شعوبها، سعياً إلى تجانس سياسي كانت في حاجة إليه. ولم يكن ليشفع للمسيحيين العرب (والآراميين والأقباط) أنهم من أتباع الدين المسيحي. بل كانت بيزنطية ترغب في اختفاء كل المذاهب المسيحية التي تخالف المذهب الرسمي، كان الإمبراطور هو الرأس الديني والدنيوي. وكان الخروج على الوحدة الدينية للإمبراطورية خروجاً، في نظره، على وحدتها السياسية. وفقاً لما وصفه الدكتور إدمون رباط بعمق وتوسع في كتابه الممتاز الشرق المسيحي قبل الإسلام[1].

ولم يكن الخلاف لاهوتياً في حقيقته، أو فلنقل إنه لم يكن لاهوتياً في جميع وجوهه على الأقل. بل كان، إذا شئنا اجتناب التخصيص الجازم، لاهوتياً وسياسياً، واصطداماً بين بيئتين متنافرتين، حتى أن الإمبراطور كان يرغب في جعل الكنيسة على صورة الإمبراطورية ومثالها، ففي كل مقاطعة حاكم، وقائد عسكري... ومطران. أما المسيحيون العرب فكانوا بطبيعة الحال

[1] إدمون رباط، الشرق المسيحي قبل الإسلام (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٨٠)، (بالفرنسية).

يسعون إلى أن تكون كنيستهم تعبيراً عن بيئتهم هم. فكانوا يعينون لكل قبيلة مطراناً، مثلما كان لكل قبيلة شيخها. وذلك مثال مبسط وبليغ الدلالة على مصدر الخلافات ومنبعها. كانت الخلافات عقائدية في ظاهرها، لكنها كانت تستنبط من البيئة كل عوامل التناقض التي كانت قائمة بين عالم عربي-آرامي- قبطي يتفاعل بحيوية للتعبير عن ذاته، وبين إمبراطورية هرمة تبحث عن شتى الوسائل لمنع تفتت أشلائها، تحت ضغط نوازع التحرر لدى الشعوب التي تشكلها.

بين هاتين الرغبتين: رغبة رفض المذهب الرسمي تعبيراً عن رفض سلطان الدولة البيزنطية، ورغبة هذه في فرض مذهبها لفرض سلطانها، ظهرت طائفة من المسيحيين السوريين ارتأت أن توالي الدولة البيزنطية في مذهبها، فانضمت إلى مؤيدي مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م (ومنهم ظهرت طائفة المارونية بعد الإسلام، أواخر القرن السابع). أما الكثرة الغالبة من العرب والآراميين والقبط، فانضموا إلى ما سمي بالمذهب اليعقوبي (السريان الأرثوذكس، في التسمية المعروفة اليوم)، نسبة إلى يعقوب البرادعي مؤسس إكليروس اليعاقبة، وصديق الملك الغساني اليعقوبي الحارث بن جبلة. وللتدليل على نسبة توزيع القوى قال أحد مؤرخي ذلك العصر[٢] إن المسيحيين اليعاقبة في مصر كان عددهم ستة ملايين نسمة، فيما كان تعداد الخلقيدونيين مائتي ألف، معظمهم من الروم والإغريق في مدينة الإسكندرية وما حولها. ويورد ألفرد بتلر، المؤلف البريطاني[٣] معلومات مماثلة دون أن يتطرق إلى أرقام صريحة. أما النسبة في سوريا الطبيعية، فكانت أكثر ميلاً إلى اليعاقبة.

وكم تحوي مصادر التاريخ الكنسي وغير الكنسي، وقائع وأحداثاً تشير إلى هذه العلاقة الجدلية المعقدة بين الدولة ومحكوميها. وكم نقرأ عن تردد بيزنطية بين سياسة الملاينة وسياسة القمع، للوصول إلى غرض واحد، هو إنهاء وجود العقائد المسيحية المغايرة للعقيدة الرسمية، مرة بالمجامع التي كان يحرص الإمبراطور على قول كلمته صريحة فيها، في شكل أو آخر، ومرة بالتصفية الجسدية وملاحقة الرهبان حتى تخوم الصحاري السورية والمصرية. وفي مجزرةٍ بيزنطيةٍ واحدةٍ، قتلت الدولة في مصر مائتي ألف قبطي من أنصار الطبيعة الواحدة (اليعاقبة). وعندما فتح العرب مصر كان الإكليروس القبطي مختبئاً برمته في الصحاري هرباً من التصفية.

---

[٢] انظر المصدر نفسه.

[٣] انظر ألفرد بتلر. فتح العرب لمصر (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.١٩٤٦).

في هذا الإطار الدامي، حاولت الدولة البيزنطية أن تتكئ على قواها الذاتية بالطبع، لكنها سعت أيضاً إلى إنشاء متكآت محلية لها. وجعلت تزين للسريان الخلقيدونيين أن عليهم خدمة أغراضها وأنها كفيلة بحمايتهم. ونشبت في الواقع مذابح، ترويها تواريخ الكنيسة، ومنها مذبحة رهبان دير مارون في أفاميا (في جوار مدينة حماة السورية)، التي ذهب ضحيتها مئات من الرهبان الخلقيدونيين (أنصار المذهب الرسمي) على ما ترويه مصادرهم. وفي هذا الشأن ثمة رسالة تاريخية وجهها رهبان دير مارون وغيرهم من الرهبان الخلقيدونيين في سوريا إلى البابا هرمزدا، يرفعون فيها إليه الأمر ويناشدونه الحماية والرعاية[٤]. ولاشك في أن البابا يومئذ لم يكن يملك من وسائل الاستجابة لهذا النداء، سوى الصلاة وبعض الإجراءات الدينية العقائدية. أما الدولة البيزنطية، فإنها أمام تصاعد الصراع، وتحرك النوازع المعادية لها بين المسيحيين العرب والآراميين والأقباط، كانت في حاجة إلى حماية نفسها أكثر مما كانت قادرة على حماية أحد. والواقع أن رهبان دير مارون وغيرهم إنما كانوا ضحية اضطهاد بيزنطية للمسيحيين السوريين والمصريين، وضحية محاولتها استغلال أنصار المذهب الرسمي لمصلحتها السياسية. ولم يتوقف اضطهاد المسيحيين العرب (اضطهاد بيزنطية لليعاقبة، واضطهاد اليعاقبة في المقابل للخلقيدونيين) إلا عند ظهور الإسلام على البلاد، وقيام معاوية على الحكم في ولاية الشام، قبيل إنشاء الخلافة الأموية.

وتروي التواريخ الكنسية والإسلامية العربية[٥] أن معاوية استقبل وفداً من الرهبان الخلقيدونيين، جاءوا ليرتجعوا إليه أمر أديارهم وبيعهم التي كان اليعاقبة يستولون عليها. وأن الوالي العربي أمر بإحصاء ممتلكات كل طائفة، ومنع استيلاء أي طائفة على ممتلكات الأخرى، حتى ساد السلام بينها.

الدولة الصليبية

[٤] انظر هذه الوقائع في: يوسف الدبس، من تاريخ سوريا الدنيوي والديني (بيروت: المطبعة العمومية الكاثوليكية. ١٩٠٥). وبطرس ضو، تاريخ الموارنة (بيروت: دار النهار. ١٩٧٧).

[٥] وهي لا تكاد تحصى على كثرتها. ويمكن مراجعة تواريخ مثل تاريخ ميخائيل السرياني أو ابن العبري أو يوحنا أسقف آسيا أو تواريخ الفتح العربي كالبلاذري وابن الأثير والطبري والمسعودي وكتاب الواقدي فتوح الشام الذي جرى انتحاله، ولكن ارتكازاً على روايات أخذت عن الواقدي، وتاريخ ابن الحكم فتوح مصر، للعثور على مقدار كبير من أحداث مفيدة على هذا الصعيد.

كذلك واجه المسيحيون العرب أوقاتاً عصيبة في حقبةٍ ثانية هي الحقبة الصليبية. ويقول المطران جورج خضر، الأسقف الأرثوذكسي العلامة[٦]: إن الكثرة الغالبة من سكان سوريا الطبيعية (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وفقاً للتقسيم الحديث) ظلت تنتمي إلى الدين المسيحي طوال خمسة قرون من حكم الدول العربية الإسلامية، وإن المسلمين أصبحوا هم الكثرة الغالبة بعد الحروب الصليبية. ويشهد على ذلك تاريخ ابن عساكر. ولست أذكر هل كان المطران خضر ذكر في هذا التعقيب، أن المسيحيين شكلوا ثمانين بالمائة من سكان سوريا قبل الحروب الصليبية، أو أنه ذكر هذا الرقم في موضع آخر. على أن المهم في هذا الشأن (والمؤرخون للفترة الصليبية والمملوكية يعرفون ذلك أفضل مما يعرفه غيرهم من المؤرخين بالطبع) أن الغزو المسيحي الأوروبي، أوقع المسيحيين العرب في حرج شديد، ألطف ما يقال فيه إنه خيرهم بين الوقوف مع بني دينهم والوقوف مع بني قومهم. ويبدوا أن المسيحيين العرب في معظمهم اختاروا الحل الثاني، فكان المسعى الصليبي وبالاً على المسيحية العربية من حيث ظنّ أو صور أنه دفاعٌ عنهم.

واستطاع القلة أن يحتفظوا بدينهم دون أن يقفوا مع دولة الصليبيين، وعلى ذلك شواهد لابد من أن يحصيها علماء التاريخ في غير مرجع عربي وغير عربي. لكن الدولة الصليبية استطاعت مع ذلك، أن تزين (مرة أخرى) لقلة من المسيحيين أن ينحازوا إلى صفها ويقاتلوا معها. ويروي بعض المؤرخون أن الجالية المارونية في قبرص إنما تنحدر من سلالة عدد من المقاتلين الذين انسحبوا من الساحل السوري بعد انهزام الدولة الصليبية، فأقامهم الصليبيون هناك على حصون، ليشكلوا الخط الأمامي لحماية الخطوط الأوروبية الخلفية المتراجعة أمام هجمات الدولة الأيوبية ثم دولة المماليك.

ولا يعني هذا أن أعوان الصليبيين في سوريا كانوا مسيحيين فقط. بل كان منهم مسلمون أيضاً. لكن الوبال كان على المسيحية العربية وحدها. ففيما ازداد تعداد المسلمين بعد الحروب الصليبية تقلص عدد المسيحيين في سوريا ليصبحوا قلة ضئيلة وكانوا كثرة.

---

[٦] في تعقيبه على محاضرة إدمون رباط ضمن سلسلة محاضرات حول المسيحيين العرب نظمتها دار الفن والأدب في قاعة مونتان ثم في النادي الثقافي العربي في بيروت من ٤آذار/ مارس- ٨نيسان/ إبريل ١٩٨١. وستصدر المحاضرات قريباً في كتاب. وقد تعاقب على إلقاء محاضرات هذه السلسلة كل من: إدمون رباط ورضوان السيد ووجيه كوثراني والمطران جورج خضر وقسطنطين زريق وطريف الخالدي.

عصر السيطرة الأوروبية

وها نحن اليوم في وسط الحقبة الثالثة، حقبة الحضارة الغربية الحديثة التي تناوبت أوروبا ثم أمريكا على زعامتها، وعلى تسنم مكان الصدارة والسيطرة فيها. وهي حقبة بدأت على نحو عملي مع بداية تفجر الثورة الصناعية في أوروبا، وتصارع فرنسا نابليون، وبريطانيا على مصر وبقية المشرق العربي.

وقد لا يعرف الكثيرون أن إسرائيل التي يعدها المؤرخون تجسيداً لامتداد السيطرة الغربية إلى المشرق العربي، كانت في البدء اقتراحاً من نابليون بونابرت[٧]. والفائدة من ذكر هذا الأمر، هي أن المسألة مع بونابرت تظل واضحة أكثر مما هي مع غيره. فنابليون لا يمكن اتهامه بأنه قد يقترح إنشاء دولة لأسباب دينية. ولعل إلحاق اقتراحه إنشاء دولة اليهود في فلسطين، بجملة مساعيه الإستراتيجية للسيطرة على المشرق العربي قبل بريطانيا، أكثر إقناعاً من محاولة إلحاقه بالدوافع الدينية.

وإذا حاولنا أن نرتب تسلسل الأمور زمنياً فإننا نلحظ أن التقاتل الغربي للسيطرة على المشرق العربي جاء قبل بداية المذابح الطائفية في جبل لبنان بأكثر من نصف قرن. وإذاً فلا يمكن أن ننسب إلى الوجود الغربي (الفرنسي والبريطاني والإيطالي والألماني والنمساوي والروسي) أنه جاء لحماية المسيحيين العرب من الاضطهاد. بل لعل الوجود الغربي ودواعي ترسيخه في المنطقة وتمكينه منها اقتضى إشعال فتيل التقاتل الطائفي الذي ارتبطت أحداثه بالامتيازات الأوروبية، حتى أمكن لأوروبا أن تدق في جدار هذا البيت العربي مسمار جحا[٨]، حين أوحت أنها إنما جاءت إلى المنطقة، وفككت السلطة العثمانية، وجزأت المنطقة الموروثة، كل ذلك من أجل حماية المسيحيين العرب.

وفي الواقع: من يحمي من؟

ومن يدفع الثمن. ومن يقطف الثمار: المسيحيون العرب أم ساسة الغرب؟

---

[٧] حول هذا الأمر يمكن العودة إلى دراسات لعدد من الباحثين المؤرخين، منهم حسن صبري الخولي، عبد الوهاب الكيالي وخيرية قاسمية.

[٨] باع جحا بيته، لكن رفض أن يبيع مسماراً مدقوقاً في جدار الدار، وطلب من المالك الجديد تعهداً أن يسمح له بزيارة مسماره كلما أراد، فسمح له المالك الجديد بذلك مستخفاً، لكن زيارات جحا أصبحت يومية حتى ندم صاحب البيت على ما أذن له.

الفصل الثاني

من يحمي من.... المسيحيون العرب أم الغرب؟*

* "نهار الأحد". ٢٦/ نيسان ١٩٨١م.

إذاً فمن يحمي الآخر، أهم ساسة الغرب يجهدون في حماية المسيحيين العرب، أم أن المسيحيين العرب يراد بهم أن يحموا الغرب في منطقتنا ويدفعوا ثمن حمايتهم؟

يرى المطران يوسف الدبس، مطران بيروت الماروني أواخر القرن الماضي، وأوائل القرن الحالي، أحداثاً جرت بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية، قبضت فيها بيزنطية ثمناً من الأمويين، مقابل أن تتخلى بيزنطية عن إحداث شغب للأمويين في السواحل الشامية، وعند الثغور الشمالية. ويقول المطران دبس (وهو الذي كتب تاريخه في تسعة مجلدات كبيرة في الحقبة الممتدة بين ١٨٩٣ و١٩٠٥، أي في حقبة كان فيها الضغط الأوروبي على السلطنة العثمانية مشتداً)، في بداية عرضه للأحداث[٩]:

«وذلك درس نلقيه إلى أبناء ملتنا (الموارنة) وجميع مواطنينا، نحذرهم به من التهور في مهاواة المناواة للسلطة السائدة فيهم، بوسوسة أصحاب الأغراض البعيدين عنهم. فمن المعلوم أن الخلفاء الراشدين صرفوا اهتمامهم عند أخذهم سوريا وطردهم ملوك الروم منها، إلى فتح مدنها. ولم يكترثوا لسكان جبالها لقلة أهميتها وعدم المنفعة ولتعسر مسالكها، وأن ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها. وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبّكوا أمرها ولا تستقيم حالها ليتيسر لهم العودة إليها كما حاولوا مرات فلم يظفروا. فمن ذلك أنهم وسوسوا للموارنة، وكانت مساكنهم حينئذ في الجبال، من جبال الجليل، إلى جبال إنطاكية، فلبّكوا حكوماتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطروا بعض الخلفاء أن يعقد صلحاً مع ملوك الروم... وكانت النتيجة أن هؤلاء الملوك البيزنطيين أنفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيجوهم على مخالفة رضا حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الأمرين ومكروا بهم وسبوا اثني عشر ألفاً من نخبة شبابهم وأبعدوهم عن أوطانهم، وجيشوا عليهم وأخربوا أكثر بلادهم وحرّقوا أديارهم وعمدوا إلى القبض على بطريركهم... فهذه هي الأمثولة التي نريد أن يتمثل بها أبناء ملتنا ومواطنونا».

وفي الصفحة التالية؛ أورد المطران الماروني الثمن الذي تقاضته الدولة البيزنطية «لتمكر بالمردة والموارنة»، على قوله. فإذا عدنا إلى التاريخ، وأنه للشعوب كالذاكرة للطفل، ما كان في استطاعتنا أن نستخلص من هذه الواقعة غير عبرة واحدة تطغى على كل ما عداها، أن الدين للدول، إن هو أحياناً إلا وسيلة يتوسل بها الساسة لتحقيق مصالح معينة. والدولة

---

[٩] الدبس. من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٥: في تاريخ سورية من أيام الخلفاء إلى نهاية القرن الحادي عشر، ص١٠٤ و١٠٥.

البيزنطية في تلك الواقعة، لم تر في المردة سوى "وكيل" لمصالحها تحاول استغلاله بالدوافع الدينية، من أجل تحقيق غرض ما. فإذا استطاع "الأصيل" أن يحقق غرضه مباشرة، فسيكون "الوكيل" مزعجاً، وسيجري التخلص منه بأية وسيلة. وغالباً تكون خيبة الأمل كبيرة والثمن باهظاً.

حتى لا نكون وكلاء

وحتى لا نكون وكلاءً، وهذا أمر يرفضه بلا تردد، معظم المسيحيون العرب، فما هو الخيار المتاح؟

ثلاث حقب إذن، اضطهد فيها المسيحيون العرب، وكانت للدول الغربية الأوروبية في هذه الحقب الثلاث السيطرة والغلبة. فماذا عن وضع المسيحيين العرب في الحقب الأخرى حين كانت الغلبة للدولة الإسلامية أو العربية؟

يقول الدكتور إدمون رباط عن نظام أهل الذمة في الإسلام[١٠] بالحرف: «من الممكن، وبدون مبالغة، القول بأن الفكرة التي أدت إلى انتجاع هذه السياسة الإنسانية (الليبرالية) إذا جاز استعمال هذا الاصطلاح العصري، إنما كان ابتكاراً عبقرياً، وذلك لأن للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها ألا وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بأشكاله المختلفة، من عسكرية ومُثلية وتبشيرية، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وتراث حياتها. وذلك زمن كان يقضي المبدأ السائد فيه بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم».

ولا شك في أن المسيحيين المخضرمين، الذين عاصروا الفتح الإسلامي، هم أكثر من لمس الأمر بوضوح. إذ انتقلوا فجأة من سلطان دولة كانت تضطهدهم اضطهاداً وصفه بعض المؤرخين العصريين في أوروبا بأنه لا يشبه حتى بأعمال البهائم[١١] (وهي الدولة البيزنطية) إلى سلطان دولة حافظت لهم على أديارهم وبيعهم، بعد طول تعرضها للهدم والحرق والمصادرة، كما خيرتهم بين اعتناق الإسلام أو البقاء على دينهم، بشرط الدخول في ذمة المسلمين، أي بشرط الانضمام إلى دولة الإسلام ورفض المقاتلة مع أعدائها. وكان إكليروس الكنيسة القبطية كله متخفياً في الصحاري

---

[١٠] إدمون رباط. مسيحيو الشرق قبل الإسلام (٢). المصباح (بيروت)، السنة١، العدد ٣١ (٢٠ آذار/ مارس ١٩٨١).

[١١] المصدر نفسه.

هرباً من المذابح البيزنطية. فلما جاء الفتح العربي عادت الكنيسة المصرية إلى حريتها الكاملة علناً، بل إن عمرو بن العاص عندما فتح الإسكندرية للمرة الثانية (بعدما تمكن البيزنطيون من استردادها بعض الوقت) خالف السنن الإسلامية فوزع من بيت المال على الأقباط أموالاً طائلة، لتعويضهم عن العقوبات التي أنزلتها بهم الحكومة البيزنطية لمعاونتهم العرب في فتح مصر[١٢].

حركة دينية أم سياسية؟

وهذا ليس في الواقع، بالأمر الغريب. فالدراسات التاريخية الحديثة لا تنظر إلى الفورة التاريخية التي انتابت المسيحيين العرب والآراميين والأقباط ضد بيزنطية، طوال ما يزيد على القرنين، على أنها فورة خلافات دينية نظرية حول طبيعة المسيح، بل ترى هذه الدراسات الآن، أن الخلافات الدينية لم تكن سوى أسلوب متاح للتعبير عن فوران سياسي يسعى إلى التعبير عن البيئة العربية- الآرامية- القبطية ومسعاها إلى التحرر، وهو التعبير الذي تحقق لهذه البيئة بالإسلام، فتلقته البيئة وأسلمت إليه قيادها طائعة، فعاد إليه السلام بعد قرون من المذابح المتعاقبة[١٣].

وليس أدل على ذلك من أن النظرية اليعقوبية لم تنتشر إلا في المجتمعات العربية- الآرامية- القبطية، وفي أرمينيا وقتئذ، وهي جميعها مجتمعات كانت تسعى إلى التخلص من الحكم البيزنطي والساساني.

وليس أدل على ذلك من أن الحركة "الثورة" اليعقوبية العارمة ظلت تزلزل المنطقة بعنف، برغم الاضطهاد قرنين من الزمن، حين أنها هدأت فجأة لدى ظهور الإسلام وتوقف الاضطهاد. وليس من تفسير عصري لهذا التحول غير القول، إن المنطقة كانت تبحث عن تعبير سياسي عن الذات، وجدته في الإسلام، أو وجدت في الإسلام متنفساً له.

ولهذا، كان في الإسلام متسع للنصارى، لم يكن متاحاً لهم شيء منه في دولة بيزنطية. والذين رفضوا عقيدة بيزنطية، لأنهم رفضوا سلطانها، استطاعوا أن ينضموا إلى "دار الإسلام" أهلاً للذمة، دون أن يفقدوا عقيدتهم.

---

[١٢] بتلر. فتح العرب لمصر. نقلاً عن مطران نسطوري. وانظر كذلك: الدبس. من تاريخ سوريا الدنيوي والديني، ج٩، ص٥٨٨ .

[١٣] John Spencer Trimingham. Christianity Among Arab in pre-Islamic Times (beirut. Librairie du Liban. 1979).
وغيره من الدراسات الحديثة في هذا الشأن.

تلك العقيدة التي كان النبي محمد يجلّها.

فبين المبعث والهجرة، تروي التواريخ الإسلامية، قصص المناكفات الحادة بين المسلمين والمشركين في مكة. ونزلت "سورة الروم" في شأن إحدى هذه المناكفات، إذ تغلب الساسانيون، وكانوا مجوساً من أتباع دين زرادشت، على الروم المسيحيين، فاحتلت فارس سوريا ومصر وكادت تحتل آسيا الصغرى بأكملها. يومئذ أخذ المشركون في مكة يعربون عن ابتهاجهم، على أساس أن المسلمين كانوا يتمنون انتصار الروم المؤمنين، على الساسانيين عبدة النار. وفي الآية: ﴿غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون﴾.

وراهن يومها أبو بكر الصدّيق على مال، أن الروم ستنتصر على الفرس في سبع سنين. وقيل له: لماذا راهنت على سبع سنوات والآية تقول في بضع سنين. والعرب ترى أن "بضع" تعني بين الثلاث والتسع أو العشر... إلى آخر القصة، حتى انتصر الروم فعلاً واستردوا الصليب سنة ٦٢٨م. وهذا ما يعيّد له المسيحيون إلى الآن في عيد الصليب. إذن كان محمد وصحبه يتمنون انتصار المسيحيين على الوثنيين، وهل كان غير ذلك ممكناً، وهو الذي كان معجباً بالأحناف النصارى في عشيرته، ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث أبناء عمومة زوجته خديجة، حتى بالغت بعض الدراسات في نسبة التعاليم الإسلامية إلى مدى اطلاع النبي على الديانة النصرانية، في الجزيرة العربية والشام قبيل الإسلام[١٤]. وكاد البعض يقول إن الإسلام إن هو إلا فرقة مسيحية تقول بالتوحيد هي "الأبيونية".

ولا تسارعنّ إلى القول إن الإسلام فرش الأرض للمسيحيين ورداً، فمسلك العصور القديمة لم يكن يستطيع أن يتخطى مسائل الانتماء الديني إلى الانتماء القومي، ذلك كان منافياً لطبيعة المرحلة. لكن المقارنة، وهي سبيل علمي أكيد للوصول إلى صورة واضحة، تعطي دولة الإسلام بلا شك سبقاً تاريخياً مميزاً على ما عداها من الدول في ذلك العصر، ونكاد نقول على بعض الدول حتى في عصرنا الحاضر.

تلك المقارنة أقامها المسيحيون العرب آنئذ، واختاروا في نتيجتها الوقوف إلى جانب الدولة الإسلامية بصراحة، وزراءً وكتاباً وموظفين، بل كانوا في بعض الحالات عماد عصبيتها القبلية.

---

[١٤] بعض هذه الدراسات جدي مثل دراسات الأب لويس شيخو، وبعضها الآخر لا يبدو كذلك مثل كتاب قس ونبي الذي صدر لكاتب اسمه أبو موسى الحريري مستعاراً.

وفي إحدى الحقب، كان بعض الولاة العرب يمتنعون عن تنفيذ الشرائع، ويواصلون تقاضي الجزية من النصارى الذين أسلموا. وكان في مسلكهم هذا ما فيه من عدم حض الناس على الإسلام وخوف من تناقص الخراج. وجاء في التواريخ الإسلامية حدوث وقائع كهذه في الحيرة[١٥] وفي مصر أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[١٦]، فبعث الخليفة في الحالين يأمر بوضع الجزية عمن يسلم، وفي كتاب شهير قال فيه: «فضع الجزية عمن أسلم، قبحك الله، فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً».

وكان والد الخليفة عبد العزيز بن مروان والياً لأخيه الخليفة عبد الملك بن مروان على مصر، فجرت محاولة لمواصلة جباية الجزية ممن يسلم من النصارى وغيرهم، خشية أن يتضاءل خراج مصر، لكن هذا الأمر استبعد[١٧]. وإن دل ذلك، فعلى أن بعض الولاة لم يكن يرغب في إسلام غير المسلمين، فأين نحن من إجبار النصارى على الإسلام بحد السيف، على ما أشاع كثير من المبشرين[١٨]. وأين نحن من أوضاع النصارى في حكم الدولة البيزنطية نفسها.

وإذا ذكرنا عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) وامتناعه عن الصلاة في كنيسة القيامة، خوفاً من اتخاذ المسلمين ذلك سنة يحتجون بها لأخذ الكنيسة من المسيحيين، فإنما نذكر حادثة شهيرة، غيرها كثير مما لم يشتهر. فلم يكن هذا المسلك وقفاً على علاقات المسلمين بالمسيحيين من العرب، إذ يقول المؤرخ اليهودي الفرنسي الكبير إيفاريست ليفي- بروفنسال[١٩]، في تعقيبه على فتنة المستعربين في قرطبة أيام حكم الأمير الأندلسي الأموي عبد الرحمن الأوسط (وهي ثورة القوط المسيحيين الذين كانوا يشكلون مجتمعاً واسعاً في العاصمة الأندلسية أواسط القرن الميلادي التاسع). إن بطش الأمير الأندلسي بزعماء الفتنة بعد طول انتظار، إنما كان من موقف سياسي لا ديني وحين أصبحت الفتنة تهدد بإشعال ثورة فيها خطر انهيار الدولة. وثورة ابن

---

[١٥] أبو يوسف. كتاب الخراج (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٩)، ص١٣١.

[١٦] حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام، ط٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤)، ج٢، ص٣٢٨.

[١٧] ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها (ليدن: بريل ١٩٢٠)، ص١٥٦.

[١٨] انظر: مصطفى خالدي وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، (بيروت وصيدا: المكتبة العصرية. ١٩٧٣).

[١٩] Evariste Levi-Provencal. L,Histore de Espagne musulmane (Paris: Maisonneuve, 1950). Vol 3.
وهو من أهم مراجع التاريخ الأندلسي، ويجري الآن تعريبه.

حفصون في أواخر القرن نفسه في جنوب الأندلس كانت تضم عناصر مشابهة، ولو أن ابن حفصون كان مسلماً عندما بدأ ثورته ثم ارتد في أواخرها. وينسب ليفي- بروفنسال هذه الثورات أو الفتن إلى نوع من اليقظة القومية الإسبانية ضد حكم غريب، ويستبعد التفسير المذهبي لها، نظراً إلى التسامح الديني الذي قال إن المسيحيين القوط كانوا ينعمون به في دولة الأندلس، وهو تسامح لم يكن أثر لمثله في دولتي أراغون وقشتالة في شمال إسبانيا آنئذ.

ومهما يكن فإن التاريخ العربي في طوله، وفي مصادره الإسلامية والكنسية على السواء، لا يروي حادثة واحدة يمكن تشبيهها من قريب أو بعيد باضطهادات بيزنطية للمسيحيين اليعاقبة، أو باضطهاد محاكم التفتيش الإسبانية للمسلمين أو العرب أو المستعربين، فضلاً عن اليهود.

إذ تمتعت المذاهب المسيحية العربية على اختلافها، بعد ظهور الإسلام، بالحرية التي كانت تقاتل من أجلها تحت حكم بيزنطية، منذ دخولها في ذمة المسلمين، أي إطار دولتهم.

وإذا استقصينا مواقف الدولة الإسلامية الناشئة من أعدائها داخل الجزيرة العربية وخارجها، تبين بوضوح أن الإسلام في الجزيرة العربية حارب عبادة الأوثان قبل أي شيء آخر[٢٠]، كما حارب التناحر القبلي الذي كانت عبادة الأوثان التعبير العقائدي له، فوحّد الله ليوحد عابديه. وخارج الجزيرة العربية حارب الإسلام سلطان الدولتين الكبريين آنئذ، بيزنطية وفارس. ولم يكن النصارى العرب في يوم من الأيام على سجل الأعداء، بل العكس.

ووقت كانت جميع دول الأرض لا ترضى بدين آخر داخل تخومها، وكانت دولة المسلمين في عز انتصارها وقوتها وغناها عن الملاينة والمسايرة، أحدثت نظام تعدد الأديان في الدولة الواحدة، نظام أهل الذمة.

وفي رأيي أن نسبة هذا الإجراء إلى السمو الخلقي وحده لا يفسر الأمور بعمق، والأرجح عندي أن النصرانية الآرامية- العربية- القبطية كانت حليفاً طبيعياً للإسلام، في إطار الصراع التاريخي الذي ظل يتجاذب المنطقة قروناً قبل ظهور الإسلام.

وهذا يعني أن دولة الإسلام كانت حليفاً طبيعياً للنصارى العرب، ماداموا في صفها السياسي، لا في صفّ الدول العدوة. ولا حاجة إذن

---

[٢٠] انظر: ابن الكلبي. كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي. ط٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٤). وهو عزيز في المكتبات التجارية لكنه متوافر في المكتبات الجامعية.

بالمسيحيين العرب إلى الغرب، بل إن الغرب هو الذي توسل إلى مصالحه بحماية من المسيحيين العرب، وجعلهم في كثير من الأحيان يدفعون من دمهم ثمن تحويلهم إلى ترس يختبئ من ورائه. حدث ذلك كلما كانت تقوم للغرب دولة في منطقتنا: الحقبة البيزنطية، والحقبة الصليبية، والحقبة الحالية.

أفلم يطلب فارس الخوري، السياسي السوري المسيحي البارز[٢١]، حماية المسلمين للنصارى العرب من مرامي الدول الغربية ونوازعها؟

[٢١] كما ورد في تعقيب ظافر القاسمي على محاضرة إدمون رباط، في سلسلة محاضرات دار الفن والأدب حول المسيحيين العرب. بيروت، قاعة مونتان، الأربعاء ٤آذار/ مارس ١٩٨١م.

الفصل الثالث

المسيحيون العرب: لم يحمهم الغرب فهل تحميهم الدولة العربية؟*

* "نهار الأحد". ٣/ أيار ١٩٨١م.

إذا كان الغرب لا يستطيع أن يحمي المسيحيين العرب، وإذا كان يحق للمسيحيين العرب أن يستعيذوا برب الفلق كلما امتدت إليهم يد الغرب عارضة "الحماية"، على طراز ما حدث في التجارب الثلاث، فانقلبت الحماية وبالاً على المسيحيين. بل إذا كانت التجارب المذكورة أثبتت أن المسيحيين العرب يحتاجون بالأحرى إلى من يحميهم مما يبيته لهم الغرب من دور، كلما رغب في الامتداد إلى المنطقة. فهل تستطيع الدولة العربية أن تحميهم؟

هذا سؤال لا يستقيم الرد عليه إلا إذا أزلنا الالتباس في مسألتين، الالتباس فيهما معهود وشائع، وهما مسألة علاقة الدين بالدولة، ومسألة التمييز بين الإسلام الدين والإسلام الحضارة.

الدين والدولة في الأصل

أما علاقة الدين بالدولة فهي علاقة معقدة للغاية منذ أزمنة غابرة، فكيف بها الآن، إذ أصبحت مسئولة عن الاقتتال الطائفي في نظر الكثيرين؟

وإذا كان الاقتتال الطائفي في لبنان أحدث اختلالاً في آراء الناس بعلاقة الدين بالدولة، فارتأى البعض حاجة إلى إقامة دولة طائفية. وارتأى البعض اعتماد العلمانية الغربية، وكلا الأمرين هدام أو صعب أو متعذر التحقيق. فإن العودة إلى أصول العلاقة التاريخية بين الدولة والدين، قد تعيد إلينا بعض التوازن في نظرتنا إلى الأمر، وترد علينا القدرة على رؤية واضحة وعميقة لا تدفعنا إلى حلول متسرعة متهورة، أو لا تضطرنا إلى استيراد حلول سرعان ما تخيب آمالنا وتعيدنا إلى الصفر.

أول ما تعيه ذاكرة التاريخ عن علاقة الدين بالدولة، ذلك التنظيم البدائي الذي أخذت مجتمعات الاستقرار الزراعي الأولى في وادي الرافدين وفي مصر تعتمده، لغرضي الحماية العسكرية والأشغال العامة[٢٢].

وليس ثمة أدلة قاطعة حاسمة، على أن مجريات الأمور كانت على نحو ما نتخيل. لكن أي تصور لما حصل، ينبغي أن يكون منطقياً ومعقولاً، ولا يتناقض مع المكتشفات الأثرية المتعلقة بتلك الأزمنة.

والتصور المنطقي لما حدث آنذاك هو الآتي:

---

[٢٢] في هذا الشأن يمكن الرجوع إلى مؤلفات رشيد الفاخوري (جامعة الإسكندرية)، أو هنري فرانكفورت وآخرون. ما قبل الفلسفة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠). James G. Frazaer. The Golden Bough, a Statudy in Magic and Religion (London: Macmillan. 1911-1915). وغيرها.

لدى اكتشاف الزراعة، سعى الكثير من الناس إلى استيطان جوار الأنهار، مللاً من حياة البداوة أو هرباً من عناء الاضطرار إلى التنقل وراء الطعام. فلما اجتمع كثيرون على مواقع صناعة الطعام، التي هي مناطق زراعية، أخذت الحاجة إلى تنظيم للمجتمع الزراعي تتكون مع الوقت، لحل مشكلاته، المشكلة الكبرى هي بالطبع دفاعية. فإن المجتمع الزراعي ثابت في مكانه، ومن يريد غزوه لا يحتاج إلا إلى عنصر المباغتة والمفاجأة، فتكون له الغلال والدواجن، وما أراد من السبي. أما المشكلة الثانية فهي الأشغال العامة، فإن المجتمع الزراعي الناشئ أخذ يتراكم فيه المزارعون عند حافة النهر، ازدادت الحاجة إلى الترع والسواقي لجر المياه إلى مساحات جديدة، بعيدة نوعاً ما عن النهر، بغية تخفيف الضغط وتجنب الاقتتال على الأرض وتحقيق سلام اجتماعي بين المزارعين أنفسهم. في هذا الظرف برز رجل يمتلك صفة القيادة، فانتقى من المزارعين عدداً من الرجال سيطر بهم على هذا المجتمع الناشئ، وأخذ يتقاضى "الخوات" ليعيل رجاله وينظم بها الحماية الجماعية وينشئ الأشغال. وارتضى المزارعون هذا الوضع لأنه أوقف الغزوات وأقام نوعاً من الأمن الاجتماعي في مدينتهم الأولى.

هذا العقد الاجتماعي الأول، لاشك في أنه انفرط مرات كلما تنفرط زعامته، حتى قيض له من ارتأى أن دواعي الاستمرار تقضي التطور في هذا النظام. فتفتق ذهن أحدهم عن فكرة إنشاء عقيدة تحول دون انفراط التزام المزارعين للعقد القائم بينهم. فالضريبة العينية التي يدفعها المزارع إلى الهيكل (بيت الدولة، ومخزن الغلال) إنما هي جزء مما أنزلته الآلهة على المزارع من المطر أو الفيضانات الموسمية. ومن لا يدفع العشر إلى الآلهة، فإنما يتعرض للجفاف في السنة المقبلة، كما يتعرض للغزو والفتك والوبالات المختلفة. مثل هذه العقيدة، تبين على ما يبدو، أنها كانت مجدية للغاية في إحكام طوق العقد الاجتماعي في المدينة الأولى، فلم تبق المدينة في حاجة إلى بأس مؤسسها وسطوته، بل أصبح لها سند آخر في غياب المؤسس، هو الدين، الذي ضمن بقاء العقد الاجتماعي أجيالاً وراء أجيال، مادامت الضرائب مستمرة على تغذية الهيكل، ومادام الهيكل ينفق بنجاح على مهمات الدفاع والأشغال العامة، تحت إشراف ملك المدينة الذي أصبح كاهناً أيضاً.

في ضوء هذا المفهوم لنشأة الأديان الطبيعية، يتضح أن الغرض الأساسي كان التنظيم الاجتماعي والسياسي، لإقامة نوع من "الضمان الجماعي" العسكري والاقتصادي.

ولا نرى استثناءً في هذا، حتى في الأديان الموحى بها. فالأغراض الدنيوية للدين (إذا صرفنا النظر عن أية أغراض من طبيعة غير مادية) بقيت في إطار تحقيق هذا الضمان الجماعي للمجتمعات في المجالين العسكري والاقتصادي. ولعل في سورة قريش تجسيداً شديد الإيجاز والبلاغة لهذين الغرضين في الأديان إذ يقول الكتاب:﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾، اختصار عظيم البلاغة لغرضي الدين الاقتصادي والدفاعي.

ولعل الإسلام أوضح الأديان في هذا الشأن، إذ نسخ الضمان الجماعي القبلي، القائم على العصبية القبلية ومبدأ الثأر، ليحل محله الضمان الجماعي للدولة العربية الإسلامية[٢٣].

ولعل في بعض الكتابات الشائعة الآن، التي تتحدث بمرارة عن الدين؛ وأنه مصدر المصائب والفتن في التاريخ، بعض تسرع وسطحية في تحليل الأمور. فمنشأ الأديان القديمة، كان حاجةً ماديةً اجتماعيةً وسياسية. وإذا نحن تخيلنا عالماً يخلو فجأة من الدين، أثمة شكّ في أن صراع المصالح سيستمر في هذا العالم الخالي من الدين؟ أثمة شك في أن أصحاب المصالح المتصارعة لن يعدموا وسيلة لخوض صراعهم السياسي تحت رايات "عقائدية" أخرى غير الدين؟

إن تفسير الصراع في لبنان مثلاً، أنه صراع ديني، لا يوضح الأمور بعمق. إن ما يسمى بالفريق المسيحي في لبنان هو على خصام مع المسيحيين الذين يخالفون موقفه، فيما هو يتعاون مع المسلمين الذين يؤيدونه. وهذا ينطبق أيضاً على الفريق الآخر. إذاً فالمسألة سياسية في حقيقتها وإن كانت الواجهات التي يجري وراءها الصراع دينية. فإذا اتفق اثنان في الدين والسياسة فلا بأس. أما إذا اتفقا في الدين واختلفا في السياسة فإن هذه هي التي تغلب في تعيين علاقتهما.

وقبل أن نتحول من صبّ نقمتنا على الدين إلى صبها على السياسة، نسارع إلى القول: إن المصالح السياسة المتصارعة هي من طبيعة العيش الجماعي في كل عصر ومجتمع. وإذا تبدلت الواجهات فمن السذاجة أن نتوقع انتهاء الصراعات. ولابد من إعادة النظر في المواقف المتسرعة من الدين الذي كان طوال ألوف السنين، الوسيلة الوحيدة المعروفة لتنظيم المجتمعات

---

[٢٣] انظر المراجع الغزيرة في هذا الشأن في الأحاديث وفي سور القرآن والمؤلفات التاريخية التي تتناول نشأة الدولة الإسلامية في المدينة، وموقفها من "التبدي" والعصبية القبلية والأخوة الإسلامية.

البشرية، ونشأت ضمن صيغه المختلفة حضارات لامعة كانت على الدوام طليعة الحضارة في العالم.

ولا نقصد بإعادة النظر هذه إلى تبرئة الدين، فذلك من هموم غيرنا. بل نقصد إلى معرفة أعمق لعوامل التاريخ والأسباب والنتائج فيه، حتى لا نتهم الدين، فنزيله من مجتمعنا، لنكتشف بعد حين أن الصراع السياسي العقائدي لم يتوقف، وأن شيئاً لم يتغير.

ولعل الاعتراض الأهم في إطار هذه النظرة إلى الدين هي القول: إن الدين هو مؤسسة اجتماعية سياسية ترمي إلى إحكام بناء "الضمان الجماعي" فإذا تحول الدين عن وظيفته هذه، وأصبح عامل تفريق لا تجميع، فذاك دليل فشله وحافز على البحث عن وسيلة أرقى لتحقيق "الضمان الجماعي".

إن هذا الاعتراض يسوقنا إلى إيضاح الالتباس الثاني.

الإسلام الدين والإسلام الحضارة

كثيراً ما يختلط الإسلام- الدين، بالإسلام- الحضارة في أذهان الناس. وهذا الاختلاط مصدر التباسات عميقة ومتعددة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء.

ولعل مكرم عبيد، الزعيم السياسي المصري القبطي الشهير، كان يرى بوضوح هذا الأمر في حين قال في إحدى خطبه، ما معناه: أنا مسيحي في ديني، مسلم في وطني. ولعل الاختلاط بين الإسلام- الدين، والإسلام- الحضارة عائد إلى أن حضارة الإسلام نشأت على أكتاف هذا الدين. فأشعل حركتها بناره، وانطلقت في العالم بقوة اندفاعه. لكن الحضارة الإسلامية في الواقع أنشأت أحياناً مجتمعات تنتمي إليه في كل شيء إلا الدين. ولا شك في أن المسيحيين العرب اليوم، هم من أولئك الناس الذين ينتمون إلى حضارة الإسلام، دون أن ينتموا إلى الإسلام ديناً.

إذن يعترض البعض على تسمية هذه الحضارة بالإسلام. وقد لا يختلف الأمر كثيراً إذا سميناه بالحضرة العربية. مع بعض الاعتراضات الأكاديمية الثانوية. إلا أننا نستطيع القول أن المضمون هو الأهم، وإن اختلفت التسميات. وإذا كان توماس أرنولد يسميها: "تراث الإسلام"، أو كان غوستاف لوبون يسميها: "حضارة العرب"[٢٤]، فإن المسيحي العربي يحمل في وجدانه

[٢٤] توماس أرنولد، جامع تراث الإسلام. تعريب جرجيس فتح الله، ط٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢). وغوستاف لوبون، حضارة العرب. تعريب محمد عادل زعيتر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥).

هذا الرصيد الحضاري الذي يشترك فيه مع المسلم منذ أن قامت الدولة العربية الإسلامية حتى الآن.

أفلا يطرب العربي المسيحي، مثل المسلم لبلاغة اللغة العربية، وقوة الشعر العربي المسبوك بلغة القرآن؟ أفلا تهزه الموسيقى العربية الغنائية المنحدرة من التجويد القرآني؟ أفلا تستهويه خطوط العمارة الإسلامية؟ أفلا تعتمل في صدره عواطف من نمط عربي لا شبيه لمثلها في الغرب؟ أفلا تحكم عقله مفاهيم اجتماعية وعائلية مماثلة لما يحكم عقل المسلم العربي؟

إذن فما الذي يفرقه عن المسلم سوى تلك المساحة الضئيلة التي يحتلها الدين من حياتنا؟ وأقصد بالدين العقيدة الأخروية والصلاة والصيام والفروض. ولا أقصد الاقتتال الطائفي الذي هو اقتتال سياسي في حقيقته.

إذن فالإسلام- الحضارة (أو فلنسميها العروبة في حال المسلمين والمسيحيين العرب) هي عامل تجميع لا تفريق. وليس أدل من ذلك أن جميع الذين عملوا لتعميق الاختلافات، بغية تسعير الخلافات، لم يقتصر عملهم على الصعيد الديني، بل ابتكروا مسألة "اللغة العامية" والحرف اللاتيني[٢٥]، ليفصلوا المسيحيين العرب عن حضارة العروبة في الصعيد اللغوي. وأخذوا يشككون في الموسيقى العربية ويسعون إلى إلغاء شخصيتها القومية عن طريق إلغاء ربع الصوت، واتهام هذا العنصر الموسيقي المدهش، بأنه سبب "تخلف" الموسيقى العربية، وغرضهم الحقيقي دفع المسيحيين العرب، إلى توسيع المساحة التي يتميزون فيها حضارياً عن المسلمين، لأن الاختلاف في الدين لم يكن كافياً لتحقيق غرض تمزيق مجتمع العروبة، الذي سعوا إليه.

وإن من السذاجة أن نعتقد، أن الغرب إنما يسعى إلى إلغاء الإسلام حتى تتحقق وحدة المسلمين والمسيحيين العرب.

ولعل من السذاجة والتخلف معاً أن نساير هذا المسعى أملاً في إزالة عائق في سبيل الوحدة ضمن العقد الاجتماعي القومي. فهذه الوحدة في العروبة، قائمة على أسس حضارية إسلامية عربية عميقة الجذور في شخصيتنا المميزة بين شعوب العالم. وإلغاء هذه الأسس هو الذي يفرط عقد هذه الوحدة في العروبة.

ولا نظن أننا إذا أبرمنا عقداً جماعياً جديداً يزيل بموجبه العرب الإسلام الحضاري، نكون نزعنا من يد الغرب سلاحاً يعمل بوساطته على

---

[٢٥] انظر كتابات أنيس فريحة، ومصطفى خالدي وعمر فروخ في هذا الصدد، خصوصاً كتاب خالدي وفروخ، التبشير والإستعمار في البلاد العربية. وكتابات عديدة لسعيد عقل ويوسف الخال وغيرهم.

تمزيقنا. بل العكس. ذلك أن الغرب هو الذي يشجع على توسيع مساحة الاختلافات، وأغراض الغرب من هذا التشجيع لن تتوقف مهما تنازلنا. بل لعل الأمل الوحيد في وقف محاولات الغرب توسيع مساحات الاختلاف الحضاري بين المسيحيين والمسلمين العرب، هي في العمل على تضييقها. فلا يكتفي المسيحيون العرب فقط بالتمسك بعروبتهم الحضارية في مسائل كاللغة والموسيقى والتربية، بل لعلهم يحسمون الأمر حين يزيلون أيضاً كل اختلاف سياسي، قد يميزهم عن المسلمين في موقفهم من الصدام القائم مع الغزو الحضاري الغربي.

إن محاولة الغرب تغريب المسيحيين العرب، في اللغة والمزاج الفني وأساليب العيش والتوجه السياسي والاجتماعي، لا يمكن إدراجها إلا ضمن المساعي الغربية لدق "مسمار جحا" في جدار البيت العربي.

ومن الواضح أن هذه المساعي سياسية لا دينية.

والضمان الوحيد حتى لا يظل المسيحيون العرب يدفعون ثمن مدّ النفوذ الغربي وجزره كل مرة هو رفض هذا التغريب، وتوسيع مساحة العيش المشترك مع المسلمين إلى أقصى الحدود، حتى لا يبقى من مساحة اختلاف في حياتنا غير الدين. والإسلام في دولته التاريخية اتسع لمواطنين مسيحيين، بل أثبت أنه أكثر اتساعاً للمسيحيين العرب من دولة بيزنطية المسيحية. ولا شك في أن الدولة العربية الحديثة تستطيع بلا عناء أن تكون في مثل رحابة الدولة العربية الإسلامية الأولى على الأقل. ولكن ذلك لا يظل مضموناً إذا لم يقاوم المسيحيون العرب محاولات تغريبهم.

وإذا شارك المسيحيون العرب المسلمين أذواقهم ولغتهم ووجدانهم الاجتماعي، فإن خير تكريس لهذه المشاركة هو الانضمام بلا تردد إلى العروبة الحضارية والسياسية الرافضة للسيطرة الغربية.

إن هذه المشاركة تهم المسلمين، لأنها أحد ضمانات سيادتهم.

لكنها تهم المسيحيين أكثر، لأنها ضمان مصيرهم.

وفي إمكان المسيحيين العرب أن يتداولوا كلمة السر العظيمة التي رددها في مثل ظروف اليوم الزعيم اللبناني يوسف كرم منذ أكثر من قرن، إذ دعا المسيحيين إلى عدم تعليق الآمال على الدول الأجنبية لأن لها مشاريعها ومطامعها الخاصة.

والذي قال في تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين: «إن تجزئة الحكم الذاتي لا يمكنها أن تكون تقدماً، فاختفى الأمن وتولدت الفتن الدينية ثم تطورت شيئاً فشيئاً فأدت إلى مجازر مريعة سنة ١٨٦٠»[٢٦].

ويستطيع المسيحيون العرب أن يجدوا دائماً من يشجعهم على مخاصمة أبناء قومهم والالتحاق بالغرب. لكنهم لن يستطيعوا دائماً أن يجدوا من يقاتل بالنيابة عنهم. ولو أراد الغرب أن يقاتل بنفسه لما اتبع سياسة دفع المسيحيين إلى خطوط النار.

وأثبت التاريخ للمسيحيين العرب أن التغريب يسوقهم إلى الهلاك، وأن التعريب مدعاة إلى اطمئنانهم إلى مصيرهم.

[٢٦] راجع تاريخ سوريا الدنيوي والديني، للمطران يوسف الدبس، المجلدان الثامن والتاسع.

الفصل الرابع

المسيحيون العرب: أية دولة تناسبهم وتحميهم؟*

* "نهار الأحد". ١٠/ أيار ١٩٨١م.

إذا أراد المسيحيون العرب أن يختاروا نوع الدولة التي تناسبهم، حتى يعملوا لأجل تحقيقها، فيتعين عليهم أولاً أن يسألوا أنفسهم بعمق، وإخلاص، وجد، لأن المسألة كما هو واضح مسألة مصير:

هل يحزن ساسة الغرب لاضطهاد المسيحيين العرب، أم يبتهجون؟

فعلى الإجابة بصدق وعمق ووضوح عن هذا السؤال، والابتعاد عن خداع الذات في الإجابة عنه، يتوقف تسلسل التحليل السليم، الذي يقودنا إلى اختيار موقف لما يناسبنا، نحن المسيحيين العرب، من أشكال وأنماط الدولة العربية الحديثة المتاحة.

إن استبعاد التأثير بالأقوال العاطفية التي تصدر عن الغرب بين الحين والآخر فيما يخص مصير المسيحيين العرب، هو من ضمانات الموضوعية واجتناب الخداع الذاتي. وليس من المبالغة في القول، أن برميل نفط، في الحسابات الغربية غير المعلنة، أهم من عشرة مسيحيين عرب. تلك حقيقة لابد من وضعها بوضوح في أساس كل تحليل سليم. وهي أمر لم يعد أحد ينكره على أي حال، إلى أي فئة سياسية انتمى.

يقول برنارد لويس[٢٧] إن التغريب في المنطقة العربية، أدى إلى تفكيكها وتجزئتها. وإن هذا التفكيك السياسي قد واكبه تفكيك اجتماعي وثقافي. والواقع أن إلحاق المنطقة بالغرب، لم يكن ممكناً إلا عن طريق تفكيكها وتجزئتها. ولو أعطيت إلى أي سياسي في العالم، مسألة يسألونه فيها أن يسعى إلى إلحاق المنطقة العربية بالغرب، لما اختار غير الأسلوب الذي اختاره الغرب فعلاً، وهو تفكيك المنطقة عن طريق الفتن الطائفية، والتفتيت الاجتماعي والثقافي، وافتعال الخصومات والفروقات وتوسيع مواطن الاختلاف والمبالغة في إبرازها. وليس من شك في أن من يسعى إلى هذا، يحزنه مشهد السلام بين الطوائف، ويسعده اندلاع التقاتل بينها، ولعل من يستبعد دور الغرب في إشعال فتيل هذا التقاتل، هو واحد من اثنين: خادع أو مخدوع.

لقد أدى امتداد النفوذ الغربي إلى بلاد العرب، عبر الموجات الثلاث الأخيرة البيزنطية والصليبية والمعاصرة، إلى إضعاف مسيحيي المنطقة وتقليص وجودهم وتهديد مصيرهم.

---

[٢٧] Bernard Lewis, The Middle East and the West (New York: Harper Torch Book. 1961).p.44. وبرنارد لويس مؤرخ بريطاني، يميل الآن إلى تأييد الصهيونية.

ولا بد للمسيحيين العرب من نبذ المشروعات الغربية التي تضع مصيرهم في مهب المشروعات، وتدفعهم إلى المقامرة بوجودهم لتحقيق مصالح ليست مصالحهم.

وأمام المسيحيين العرب في المقابل أن يختاروا واحدة من الصيغ المتاحة للدولة العربية الحديثة أن تحققها:

- فإما "الدولة العربية المهادنة للغرب"، القانعة بحدود التجزئة. هي طراز شائع الآن بين الدول العربية. وأثبت هذا الطراز من الدول، خلال ست سنوات من الحرب اللبنانية، أنه عاجز عن تحقيق حماية للمسيحيين العرب في مواجهة مشروعات غربية تسعى إلى تسعير الاقتتال الطائفي ولا تتردد في المقامرة بمصيرهم.
- وإما "دولة الخميني، أو دولة بريجينيف"، كما قال أحدهم في استعراضه لاحتمالات المستقبل، وكلا الأمرين لا يقوم عليه إجماع مسيحي عربي على التأكيد.
- وإما "دولة العروبة المعادية للهيمنة الغربية". وهي دولة اقترحها جمال عبد الناصر طوال ثمانية عشر عاماً من الممارسة العملية، دون أن تحظى للأسف بتأييد من يصطلح الآن في لبنان على أنهم "قادة المسيحيين"[٢٨] ولعل أوان الندم على هذا لم يفت بعد، ولعل العودة إلى هذه التجربة ودراستها بإخلاص وعمق جديرين بمن يواجه المصير، تجيب عن السؤال المطروح: أية دولة تناسب المسيحيين العرب وتحميهم؟

إن من يتعمق في دراسة الأمر، تنتابه الدهشة، لموقف "القادة المسيحيين" المذكورين من هذه التجربة، على الرغم من وضوح مناسبتها لمصالح المسيحيين العرب وقدرتها التلقائية على حمايتهم.

لقد طرحت دولة عبد الناصر، دولة العروبة المعادية لسيطرة الغرب، صيغة يمكن أن تؤدي في النتيجة إلى ما أدت إليه دولة الإسلام الأولى، التي أوقفت اضطهاد المسيحيين العرب وأنهت محاولات بيزنطية دفع بعضهم الآخر إلى خط النار دفاعاً عن مصالحها. وفي الوقت الذي كانت فيه مصلحة بيزنطية تقضي أن تفكك دولة الإسلام الأولى، عن طريق محاولة

---

[٢٨] سنستخدم هذا التعبير بين مزدوجين. لأن ثمة قادة مسيحيين لايندرجون الآن ضمن هذا الاصطلاح الذي شاع في الحرب اللبنانية. ولأن ثمة من يقول قول هؤلاء "القادة المسيحيين" دون أن يكون مسيحياً.

إلحاق المسيحيين العرب بها، ودفعهم إلى حماية مصالحها، وتسديد ثمن هذه الحماية، كانت مصلحة الدولة الإسلامية تقضي فسح متسع رحب للمسيحيين العرب في أرجائها، لضرب محاولات التفكيك من الداخل[٢٩]. وتشاء الصدف، أو هي طبيعة الأمور بالأحرى، أن الدولة الإسلامية الأولى التي أنهت اضطهاد المسيحيين العرب هي نفسها التي أنهت دولة الالتحاق: دولة بني غسان الملتحقة بالغرب البيزنطي، ودولة المناذرة اللخميين الملتحقة بالشرق الساساني. وهل من الغريب حقاً أن تكون الدولة الرافضة للهيمنة الخارجية، هي نفسها الدولة الرافضة للتفكك الداخلي والاقتتال الطائفي؟ وهل ثمة شك في هذا الترابط العضوي بين التفسخ الداخلي والاقتتال الطائفي والهيمنة الأجنبية؟ إن رفض الدولة العربية الحديثة للسيطرة الغربية وتجنبها الالتحاق بالشرق، لهما خير ضمان لحرص دولة العروبة على حماية المسيحيين العرب ومنع اضطهادهم، وفسح متسع رحيب لهم في كل صعيد.

فمن يخدم أغراض الغرب، لابد له من التصفيق للاقتتال الطائفي، إن لم يكن هو مفتعله. ومن يواجه هذه الأغراض ويقاوم السيطرة الغربية لابد له من محاولة منع هذا الاقتتال وإرساء نظام مكين يحمي المسيحيين، ويمنع الغرب من أن يزين لهم طموحات مريضة، تسوقهم في نهاية المطاف إلى مجافاة بيئتهم الطبيعية، وإحداث شروخ فيه يدفعون هم ثمنها، ويقطف الغرب ثمارها الدامية.

لقد كان من أبرز ملامح علاقة المسيحيين العرب الجدلية بدولة عبد الناصر، أن دولة العروبة المعادية للسيطرة الغربية، لم تقف إلى جانب الدول الإسلامية بالانحياز الطائفي، بل ناصرت قبرص، ذات الكثرة المسيحية، في مواجهة تركيا المسلمة، لما رأته من علاقة بين ساسة أنقرة آنئذ ومشروع الغرب للهيمنة على المنطقة. لم يشعر أحد يومئذ، أن عبد الناصر كان محرجاً في موقفه على الإطلاق. بل كان المحرجون الحقيقيون هم الذين كانت مواقفهم المعلنة تزعم الدفاع عن المسيحيين، فيما كانت مواقفهم الحقيقية تضمر خدمة المشروع الغربي، المناقض (هذه المرة بوضوح) لمصالح فئة مسيحية وليس من شك في أن هؤلاء لزموا الصمت بسبب هذه المفارقة. ولو كانت حكومة أنقرة معادية للغرب وحكومة قبرص مؤيدة له، لكنا قطعاً استمعنا إلى صراخ مرتفع حول ذبح المسيحيين واضطهادهم بدلاً من الصمت المطبق.

---

[٢٩] انظر واقعة بني تغلب مع الخليفة عمر بن الخطاب عند فتح العراق. وحوافز التسوية التي تمت. في معظم المصادر الإسلامية الأولى.

وفي حين أن دولة الالتحاق بالغرب لا تضمن مصلحة المسيحيين، كما اتضح من التجربة القبرصية، بل تضمن مصلحة الغرب بغض النظر عما يلحق بالمسيحيين، فإن دولة العروبة المعادية للسيطرة الغربية تضمن ولاشك مصلحة المسيحيين. بل إن حمايتها لمصالح المسيحيين ومصائرهم هي من أهم ضمانات نجاحها في مواجهة الغرب.

الأسلوب الغربي للسيطرة

إن الغرب يسعى إلى السيطرة من طرق مختلفة. أهمها وأخطرها افتعال وتشجيع مناخات حضارية وهموم سياسية مختلفة ومتمايزة. بل متناقضة إذا أمكن، هنا وهناك. ذلك أن الدين وحده لا يضمن للغرب أن ينجح في ترسيخ الانفصال العربي. فيعمل مباشرة تارة، أو بالواسطة طوراً، على الترويج للغة العامية. لأن اللغة الفصحى هي مساحة لقاء مشترك كلك العرب. أما العامية فتضمن خلق دوائر تفاهم لغوي أضيق. كما يعمل على الترويج لإبراز وتضخيم هذه الفروق أو تلك، في خصائص العمارة العربية في هذا الإقليم العربي أو ذاك. أو الفروق في العادات الشعبية أو التراث الموسيقي والفني. ليس رغبة في إغناء فهمنا لحضارتنا الغنية المتنوعة، بل افتعالاً لأسس حضارات مصطنعة. حتى إذا افتعل هذه الأسس أصبح إعلان ولادة قوميات انفصالية هنا وهناك أمراً ميسوراً.

فهل ثمة تفسير آخر لهذا الترابط بين رفض اللغة العربية الفصحى والسعي إلى إحياء العامية واعتماد اللغات الأوروبية في آن؟ إن التمسك بالعامية تعبيراً عن عصبية محلية حادة، والترويج لاستخدام اللغة الفرنسية مثلاً، تعبيراً عن "انفتاح حضاري عالمي إنساني"... قد يبدوان متناقضين، لولا أنهما منطقيان جداً في إطار مساعي الغرب إلى تفكيك ملامح الحضارة العربية الموحدة (بفتح الهاء وكسرها)، وصولاً إلى دولة الالتحاق بالغرب.

وهل ثمة تفسير آخر لهذا الترابط بين رفض الانتماء إلى العروبة والسعي إلى إنشاء قومية محلية والالتحاق سياسياً بالغرب في آن؟ إن التمسك بالدائرة اللبنانية الرافضة للعروبة تعبيراً عن مفهم سياسي وإقليمي ضيق، والرغبة في الانتماء للغرب، قد يبدوان أيضاً متناقضين. فترى شخصاً واحداً، يعبر حيناً عن رغبته في الانغلاق على نفسه ورفض محيطه، ويعبر حيناً آخر عن الانفتاح إلى أقصى الحدود رغبةً في انتماء "عالمي" . وإنما هذا وذاك ليسا سوى هروب من الانتماء الطبيعي إلى البيئة العربية. فمرة يكون الهروب إلى الداخل ومرة يكون الهروب إلى الخارج... ولا تناقض بين الاثنين.

على أن نتيجة مساعي الإلحاق أو الالتحاق بالغرب، ليست مضمونة. ولا يمكن التكهن بمسار المعركة على هذا الصعيد. فردة الفعل الإيرانية على مشروع إلحاق إيران بالغرب أثبتت أن كيمياء الشعوب حين تتفاعل، قادرة على إفراز منتجات لا يتوقعها كمبيوتر البنتاغونات في العالم. ومن المؤكد أن "قادة المسيحيين" في لبنان، بما تحت أيديهم من إمكانيات بشرية وسياسية واقتصادية لا يستطيعون ضمان التحكم بمسار، الغرب كله يشك في قدرته على ضبطه، والممكن الوحيد الذي يمكن ضمانه إلى حد معقول، هو التخلي عن إرادة الالتحاق، والسعي بدلاً من ذلك إلى محاولة التعبير المشترك عن مساعي العرب إلى إنشاء دولتهم المستقلة، المناهضة لأي إلحاق بالغرب أو بالشرق.

إن مواقف "قادة المسيحيين" في لبنان تقودهم إلى مفارقات وتناقضات لم تكن لتحدث، لو أن هؤلاء القادة فصلوا بين ما يظهرونه من سعي إلى حماية المسيحيين، وما يضمرونه من رغبة في الالتحاق بالغرب.

من هذه المفارقات الغريبة، ذلك الموقف حين هللوا للإخوان المسلمين في معركتهم مع جمال عبد الناصر في الخمسينيات. لم يكن هذا الموقف هفوة غير مقصودة، إذ أن هذا التهليل تكرر في السنوات الأخيرة خلال معركة الإخوان المسلمين في سوريا. فكيف يمكن لمن يصفق للإخوان المسلمين أن يقنع الناس بصدقه حين يشكو من "التعصب الإسلامي" عند العرب، والتخوف على مصير المسيحيين؟ إن الشكوى من التعصب في هذه الحال لا تنم عن رغبة صادقة في نبذ التعصب، بل عن رغبة في تسويغ قرار الانسلاخ عن العروبة، بدعوى تعصب المسلمين. وفي هذه الحال وحدها، يصبح تعصب المسلمين مرغوباً فيه، لأنه يوفر للراغبين في الالتحاق بالغرب الغطاء المطلوب. فيتحول التعصب الإسلامي الطائفي، ومشروع إلحاق المسيحيين بالغرب (أي مشروع المقامرة بمصيرهم وبأرواح أبنائهم) وجهين لعملة واحدة فلا ينتعشان إلا معاً ولا ينكفئان إلا معاً. ومن يسعى إلى الأول يحض على الثاني، ومن يرغب في الثاني يحث على الأول.

تسامح أم دفاع عن النفس؟

وما دمنا نفضل في الغالب الرأي الأوروبي، حتى في مسائلنا التي نعرفها أكثر، فماذا يقول برنارد لويس (وهو فوق هذا يهودي) عن العرب والتسامح؟

«لقد نجح الإسلام التقليدي، ولم تنجح المسيحية في الحقيقة يوماً، في جمع التسامح الديني مع الإيمان الديني العميق، فلم يشمل الإسلام بتسامحه غير المؤمنين فقط، بل الهراطقة أيضاً – وفي هذا اختبار أصعب بكثير... وفي الصعيد الاجتماعي كان الإسلام ديمقراطياً على الدوام، أو كان بالأحرى يقول بالمساواة، فيرفض المجموعات المنغلقة كما في الهند، ويرفض الامتيازات الأرستقراطية كما في أوروبا»[٣٠]. أما آدم متز، فيفرد صفحات للتحدث عن احتفال المسلمين «بجميع الأعياد النصرانية، طوال العام»[٣١]. وهو يقول عن المسلمين: «وقد تركوا النصارى يتصرفون في أمور دينهم من غير تدخل... واشتركوا في الجانب الاجتماعي المسلي من تلك الأعياد، كما فعل آباؤهم من قبل: فمثلاً كانت أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه، وكانت أعياد القديسين في مختلف الأديرة أكثر الأعياد نصيباً من احتفال الناس، ولكن هذه الأديرة كانت لا تخلوا حتى في غير الأعياد، من الزوار الذين لا تربطهم في الدين صلة».

ويضيف متز قوله: «ولم يكن الحال في مصر يختلف كثيراً عما تقدم... وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة. ولابد أنه كان عيداً قديماً من أعياد الأشجار، وخصوصاً أشجار الزيتون... وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرن في قصر الخلافة ببغداد متزينات في ثياب جميلة غالية، وفي أعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون.

وفي القرن الرابع الهجري كان رسم النصارى ببيت المقدس في هذا العيد أن يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعازرية إلى كنيسة القيامة، وبينهما مسافة بعيدة، ويشقوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات، حاملين الصليب مشهوراً، ويركب والي البلد في جميع موكبه معهم..».

«... وفي يوم عيد الفصح ببغداد، كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو، إلى شرقي بغداد... ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره، وهناك يدور الشراب».

---

[٣٠] Lewis. The Middle East and the west, p. 57. <

[٣١] آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٧م. بيروت: دار الكتاب العربي)، ج٢، ص٢٨٢ .

ولا تكاد تخلو التواريخ الإسلامية وكتابات المستشرقين من مثل هذه الإشارات المختصرة أو المطولة، إلى مناخات كهذه تنم عن روح القبول المتبادل والتسامح في الدولة العربية الإسلامية.

هذا التسامح أرى أن نسبته إلى سمو خلقي، ليست تفسيراً مقنعاً، فالعروبة التي أقامت دولتها الوحدوية الأولى بقوة الدفع الإسلامية، والتي تصارع الغرب الآن من أجل الاستقلال، لها مصلحة عليا في منع اضطهاد المسيحي العربي، لمنع التفتت والتفكيك. والغرب في المقابل، يحتاج إلى هذا التفكيك. والتسامح الديني هو دفاع عن الذات في دولة العروبة المعادية للسيطرة الغربية، حين أن التقاتل الطائفي هو الحليف الطبيعي للسيطرة الغربية. وإذن فموقف دولة العروبة الإيجابي من المسيحيين العرب، هو موقف مضمون، لأنه من أهم ضمانات نجاحها في فك سيطرة الغرب. ولابد للمسيحيين العرب من أن يضعوا هذه الحقيقة بوضوح في أساس موقفهم، حين يهمون باختيار الدولة التي تناسبهم وتضمن حمايتهم.

وعليهم أن يعاودوا على الدوام طرح السؤال الخطير على أنفسهم:

هل يحزن ساسة الغرب لاضطهاد المسيحيين العرب، أم يبتهجون؟

إعادة نظر حضارية وسياسية

عندها فقط، سيكون المسيحيون العرب قادرين على إعادة النظر بعمق وإخلاص ووضوح، في المواقف الحضارية والسياسية التي ركز الغرب طوال قرنين جهوده على محاولة دفعهم إليها.

إن المسيحي العربي الذي يرى ما حدث للمسيحيين في لبنان، في السنوات الست الماضية، ولا يرى مع ذلك حاجة إلى إعادة النظر في قرنين من تاريخ محاولات الالتحاق بالغرب، إنما هو واحد من اثنين:

- إما أنه غير عالم بحقيقة الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسيحيين في أرواحهم وممتلكاتهم ومكانتهم.
- وإما أنه من أولئك الذين تنتابهم غريزة الانتحار الجماعي التي تنتاب الجماعات أحياناً لدوافع غامضة.

أما المسيحيون الذين لا يرغبون في الانتحار، فأمامهم أن يغلبوا غريزة البقاء على نحو ملح وحاسم، وعليهم أن يتساءلوا مرة أخرى بصدق وعمق وتبصر:

- هل الضعف العربي مضمون بقاؤه إلى الأبد (وفي الحقبة المقبلة بالذات، وبشائرها واضحة المعالم)؟

- هل المدد الغربي مضمون إلى الأبد (وهو حتى في مستواه الراهن أدى إلى إلحاق هذا المقدار من الأذى بالمسيحيين)؟
- هل تستطيع الحدود السياسية التي رسمها الغرب أن تصد إمكانات التفاعل وعلاقات التأثر والتأثير في لبنان ومحيطه العربي (وفقاً لطموحات أغنية وديع الصافي المأثورة: سيّجنا لبنان، ونقيم حزاماً عازلاً حول اللبنانيين، وهو الأمر الذي كرست الحرب اللبنانية فشله النهائي؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة بإخلاص لابد من أن تكون بالنفي. وهذا يفترض على المسيحيين العرب أن يبدؤوا نزع ملامح التغريب التي التصقت ببعض مجتمعاتهم العربية، حتى تضيق مساحات الاختلاف الحضاري بينهم وبين المسلمين.

ولا ينتابنّ أحد ريبةً في أن هذه الدعوة إنما تروج لمجتمع اللون الواحد الخالي من الألوان المتنوعة، فالألوان التي تضيف تنوعاً إلى الحضارات هي الألوان الأصيلة. أما محاولات تغريب قطاعات من المجتمع العربي، على نحو ما جرى منذ قرنين إلى الآن، فلم تكن قطعاً تقصد إلى إغناء الحضارة العربية بالألوان المتعددة، بل هي أنشأت مجتمعات تجمع بين الهجنة والعقم. وإذا كان يحق لنا أن نسأل: ماذا يضيف إلى الحضارة العالمية رجل يجافي بيئته ويلتحق بمتكلمي الفرنسية انطلاقاً من عقدة نقص؟ فإن من حقنا أن نجزم أن التعاطي مع الحضارات من موقع انعدام الثقة بالنفس والسعي إلى الالتحاق، هو الذي يضر بالحضارة ويجنح إلى عالم اللون الواحد الخالي من الألوان المتعددة. لقد أمضينا قرنين إلى الآن، في محاولة تقليد الغرب تقليداً غبياً في نظمنا السياسية لأننا اعتقدنا أن الالتحاق يضمن لنا الترقي في مراتب الحضارة. فأين أصبحت محاولات الترقي هذه؟

يقول برنارد لويس[٣٢] إن التجربة البرلمانية الأوروبية المنسوخة قد أدت إلى الفشل التام. وإن جميع النظم البرلمانية التي اصطنعها الغربيون في بلادنا على مثال دولهم، قد انتهت نهاية عنيفة «باستثناء إيران ولبنان»... والكلام طبعاً سابق لثورة إيران وللحرب اللبنانية. فأي استثناء بقي لدغدغة مخيلة الحالمين بالتغريب؟

---

[٣٢] المصدر نفسه. ص ٥٦ والواقع أن في هذا الكتاب رصداً متبصراً لأثر التغريب والتغرب والعلاقات الجدلية التي نشأت عن اقتحام الغربيين للشرق.

ويصف لويس هذه الحال إذ يقول على مصر ونظامها البرلماني المنسوخ عن مجلس العموم البريطاني[٣٣]: «والنتيجة كانت نظاماً سياسياً لا علاقة له بماضي البلاد أو حاضرها، ولا يمتّ بأي صلة إلى احتياجات مستقبلها... لقد جرى استيراد برلمان القاهرة في صندوق. وجرى تجميعه وإعداده للاستعمال، دون أن يكون مزوداً حتى بتعليمات لوسيلة استخدامه. لم يكن يسد أية حاجة أو مطالب لدى الشعب المصري، ولم يكن يحظى بمساندة أية مصالح نافذة، أو أية هيئة شعبية».

حيال هذا الفشل المطلق لابد من صرف النظر عن محاولات التغريب في كل مناحيها، وعلى كل صعدها.

إن ما يسمى اليوم "قيادة المسيحيين" وهي القيادة نفسها التي ظلت تشكل في الحقيقة عماد العصبية الحاكمة في لبنان منذ الاستقلال، باستثناء محاولات قليلة ليس هذا مجال ذكرها، قد ورثت في واقع الحال ميراث الانتداب الفرنسي، وحملت همومه السياسية و"الحضارية" نفسها. وبدلاً من توقف عادات عمرها من عمر محاولات التغريب، وتبدأ مسيرة إعادة التعريب، تأميناً لحماية المسيحيين حماية حقيقية ودائمة، واصلت العمل بسياسة الانتداب في صعد مختلفة ليست الثقافة أقلها خطراً.

ولعل المفيد في هذا الصدد، ملاحظة تطور أسئلة مادة الفلسفة التي طرحت في امتحانات البكالوريا قبل الاستقلال وبعده، لمعرفة نوع "الهموم الحضارية" التي ورثناها عن الانتداب. ففي دورة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٤م كان السؤال: «هل من فلسفة عربية؟» وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١م: «هل أضاف فلاسفة العرب شيئاً جديداً إلى فلسفة الأقدمين حتى يمكن القول أن للعرب فلسفتهم كما لليونان فلسفتهم؟». هذا قبل الاستقلال، أي أن الأسئلة وضعها الفرنسيون. أما بعد الاستقلال، حين أصبحت البكالوريا تحت إشراف وزارة المعارف (وزارة التربية الآن) فقد ظلت روح الأسئلة على حالها، بل ازدادت وضوحاً. في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٤م كان السؤال: «قال أرنست رينان: ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية». وفي دورة حزيران/ يونيو ١٩٤٦م: «قيل: لم تستقم للعرب فلسفة لأنهم لم يوحدوا بين العناصر الأجنبية التي نقلوها، إنما اكتفوا بعرضها متجاورة لا متفاعلة». وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨: «قال أرنيست رينان: ليست الفلسفة العربية..» إلى آخر السؤال[٣٤].

---

[٣٣] المصدر نفسه، ص٥٩ .

[٣٤] خالدي وفروخ: التبشير والإستعمار في البلاد العربية، ص٢١٨ .

والمشكلة أن مثل هذا الاتجاه في احتقار التراث العربي، إنما كان يروج له باسم العلم والتحضر، حين أن الفلسفة الأوروبية عاشت ثلاثة قرون على فلسفة ابن رشد وتطويره العظيم للفلسفة اليونانية، وحين أن كبار علماء وفلاسفة التاريخ المنصفين يعرفون لابن خلدون قدره العظيم ودوره التأسيسي في فلسفة التاريخ، ويعتبره أرنولد توينبي وجاك بيرك وألبان ويدجري و إيف لاكوست وجورج لابيكا وغيرهم، من ألمع مصابيح الفكر في كل العصور. ولا حاجة إلى التفصيل في هذا الأمر الآن، لأن الدراسات تجاوزت هذه المرحلة الساذجة من احتقار الإسهامات العربية في الفكر العالمي، وهو الاحتقار الذي روج له مستشرقون عنصريون في عصر انتشار الاستعمار الغربي المباشر أمثال رينان وماسينيون وغيرهما[٣٥].

لكن المشكلة أن "قادة المسيحيين" في لبنان لم يتجاوزوا هذا السعي الحثيث إلى تعميم احتقار التراث العربي العظيم في كل مجال وصعيد تحقيقاً لتمايز "حضاري"، مرة عن طريق اللغة العامية، ومرة عن طريق اللغة الفرنسية، تارةً باحتقار الفنون العربية، وطوراً بتشجيع الالتحاق الفني بالغرب... وهكذا. وحتى في التاريخ جرى التركيز تارة على إبراز التاريخ المعاصر، ابتداءً من سنة ١٩٢٠م حين رسم سايكس وبيكو حدود التقسيم الأوروبي الحديث لبلادنا، وطوراً على الإيغال في التاريخ القديم وحقبة الفينيقيين وإلغاء كل الحقب الأخرى بينهما، محاولة للهرب من أربعة عشر قرناً من العروبة الصريحة غير الملتبسة... تماماً مثلما جرى الهروب الجغرافي إلى الداخل أو إلى الخارج، من المحيط العربي المباشر.

وحتى الآن في العصر الذي افترض أنه عصر العلم، لا يزال اجتناب التكنّي بالعروبة سنة لا يخرج عليها أنصار الالتحاق بالغرب. فتراهم في أحسن الأحوال يصفون أنفسهم بأنهم "ناطقون بالعربية" على اعتبار أن الفينيقيين أو الآراميين ساميون وليسوا عرباً... مع أن العلم أخذ يقول الآن بأن الساميين جميعهم عرب[٣٦]. وعلى الرغم من أن الفينيقيين إنما أقاموا أمجادهم الحضارية جميعاً على ذهنية التعاطي مع بيئتهم الطبيعية لا على رفضها واحتقارها والانسلاخ عنها، فيقول د.إدمون رباط[٣٧]إن الفينيقيين كانوا

---

[٣٥] انظر في هذا الشأن: Edward Said, Orientalism (New York: Pantheon Books, 1978)

[٣٦] إدمون رباط، الشرق المسيحي قبل الإسلام (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨٠)، ص ١٣٠ .

[٣٧] المصدر نفسه، ص١٢٨ وما بعدها.

يتاجرون في البحر المتوسط، في السلع التي كان العرب يأتون بها إلى تخوم الصحراء الشامية. ولعل من الحقائق غير الشائعة أن سهل البقاع كان قبل المسيح لقرون طويلة جزءاً من مراتع البدو الرحل العرب الذين كانت تمتد ديارهم إلى جنوب تركيا منذ الأزمنة الغابرة[٣٨].

وإذا كان السعي إلى فك الارتباط العضوي بالعروبة، من خلال النظرية العرقية في تكوين الشعوب والقوميات قد فشل تماماً، فإن النظرية البيئية أقل إسعافاً في هذا المضمار، لأن عناصر البيئة، اللغة والاتصال الجغرافي والبشري والمصالح الاقتصادية المترابطة والمصير المشترك والماضي التاريخي والتطور السياسي والتأثر والتأثير، ترجح جميعاً الانتماء إلى العروبة ترجيحاً لا مرد له.

ولا يغرنك أن كل محاولة للالتحاق بالغرب، في اللغة أو الفن أو السياسة، تلقى تشجيعاً أوروبياً أو غربياً، من صنف التشجيع المستتر أو المكشوف. فمثل هذا التشجيع لمثل هذا الالتحاق أمر مضمون، ولكن الأمر غير المضمون هو مسارعة الغرب إلى حماية أهل الالتحاق ونجدتهم عند الحاجة. إن رأي الغرب في مسار التغرب والالتحاق، هو معيار خداع، لأنه يقيس مقدار خدمة هذا الالتحاق لمصالح الغرب، ويغض النظر عن مصالح الملتحقين. والمعيار الحقيقي لهذا الاتجاه نحو التغرب، هو أثره في علاقة الملتحقين، بشركائهم في العروبة. لأن ميزان هذه العلاقة هو الذي يبين تماماً مقدار المخاطر التي تتعرض لها مصالح المسيحيين العرب الساعين إلى الالتحاق بالغرب، وفقاً لما اتضح عبر تجارب تاريخية مؤلمة.

الدائرة الأصغر والأقوى

إن إحكام الروابط والعلائق الحضرية والسياسية، بين المسلمين والمسيحيين ضمن إطار العروبة، هو إذاً خير ضمان:

- لسيادة المسلمين والمسيحيين العرب على أوطانهم.
- ولتأمين مصير المسيحيين العرب ومستقبل أولادهم.

لقد كان جمال عبد الناصر يقول إن حركة دولته، دولة العروبة المعادية لسيطرة الغرب تدور ضمن ثلاث دوائر مضطردة الاتساع: الأولى

---

[٣٨] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. (بيروت: دار العلم للملايين. بغداد: دار النهضة، ١٩٧٦)، ج٢، ص٦٢٠.

هي الدائرة العربية، والثانية هي الدائرة الإسلامية، والثالثة هي دائرة العالم الثالث.

ومن الواضح أن عبد الناصر كان يقصد من هذا إلى وضع أسس "عقود اجتماعية" للأغراض الدفاعية والاقتصادية، تماماً مثلما كان الدين الأول في المجتمع الزراعي البدائي، لكن الدائرة الأولى، دائرة العروبة، كانت توفر له العقد الاجتماعي الأشد قوة وتماسكاً لأنه قائم على المشاركة الحضارية الكاملة بين أطراف العقد (باستثناء الطقوس الدينية فيما يتعلق بالمسيحيين العرب). أما الدائرة الثانية فإن المشاركة الحضارية فيها أقل اتساعاً، وعنصرها الأساسي المشاركة في الدين، وإن كانت بعض الشعوب تمتلك في هذا الإطار عوامل مشاركة أخرى تلتقي فيها. وعلى الدائرة الثالثة، دائرة العالم الثالث، يمكن القول أن أطراف "العقد الاجتماعي" فيها يشتركون في المشكلات التي يعانونها وفي الخصم الذي يواجههم.

ولا حاجة إلى القول، أن من يبحث عن تحالفات لعقود اجتماعية بهذا الاتساع، لا يمكن أن تفوته ضرورة قيام العقد الاجتماعي الأضيق، أو الحفاظ عليه إذا كان قائماً. هذا العقد الأضيق، في مفهوم عبد الناصر، أو الدوائر الصغرى كما كان يقول، هي العروبة. ولا شك في أن السلام الاجتماعي والديني بين المسلمين والمسيحيين كان من أغراضه السياسية الأولى، لأنها ضمن السياق والمنطق تماماً.

هذه الصيغة هي الضمان لمستقبل المسيحيين العرب. فإذا عملوا من أجلها فسيجدون المسلمين أشد المتحمسين لها. أفلم يكونوا في أقصى حالات الحماسة الممكنة في سنواتها الثماني عشر؟.

ملاحق توثيق

وثيقة رقم ١

المسيحيون في الشرق قبل الإسلام
نظرة سريعة

د. إدمون رباط

يتصف المسيحيون الشرقيون بظاهرة خاصة بهم، لا يبدو أن لها مثيلاً في سائر البلاد التي تعمها المسيحية، وهي في توزيعهم إلى طوائف مختلفة، قائمة بذاتها، تستند كل منها إلى تاريخ سحيق، فتتمتع بهيكلية كهنوتية، وتشريعات كنسية، ومحاكم مذهبية أو روحية، خاصة بها، وهي منقسمة في الوقت الحاضر، فئتين واسعتين، فئة الطوائف الشرقية، المستقلة عن كل سلطة دينية خارجة عنها، وفئة الطوائف الموصوفة بالغربية، أي الكاثوليكية، من جراء خضوعها إلى الكنيسة الرومانية وانتمائها إلى عقيدتها وتعاليمها، مع ملاحظة أن هذه الطوائف الكاثوليكية كانت وليدة انشقاق قد أصاب طائفتها الأصلية، وهي الطائفة الشرقية الأم، باستثناء الطائفة المارونية، التي استطاعت المحافظة على وحدتها الكنسية والاجتماعية، في إطار الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بفضل انحصارها في إقليم جغرافي واحد في شمال جبال لبنان.

ومن المعلوم أن هذه الطوائف هي من رواسب الماضي البعيد، العائد إلى ما قبل الإسلام، وأنها نشأت وتكونت قبل الإسلام والفتح العربي، عندما كانت المسيحية تعم العالم القديم بأسره، أي أوروبا الوسطى والغربية، والإمبراطورية البيزنطية، ماعدا المملكة الفارسية، التي كانت المسيحية قد تغلغلت فيها من جوانبها الغربية، في العراق والقسم الشرقي الأكبر من بلاد بين النهرين، أي الجزيرة في لغة العرب.

فالمسيحية قد احتلت، بعد سنوات قليلة من صدور مرسوم الإمبراطور قسطنطين الكبير، عام ٣١٣م، مرتبة دين الدولة الرسمي في الإمبراطورية الرومانية، وعندما تحولت هذه الإمبراطورية، تدريجياً، إلى إمبراطورية إغريقية بلغتها وثقافتها، فغدت معروفة - فعلاً لا رسمياً، إذ أنها احتفظت بتسميتها الرومانية الرسمية، وهي التسمية التي تحرفت إلى تسمية "الروم" في اللغات الشرقية – باتت معروفة بالإمبراطورية البيزنطية.

وإليها كانت تمت بلاد الشام، أي سوريا وفلسطين ومصر، وأفريقيا الشمالية وإسبانيا الفزيغوتية، القائمة على سواحل البحر المتوسط، ومن بداهة القول أن شعوب هذه الأقطار كانت جميعها تدين بالمسيحية الرسمية، على مذهب الدولة، وكانت منتظمة في أربع بطريركيات كبرى، هي بطريركية إنطاكية – وهي الأقدم عهداً- وبطريركية القسطنطينية، وبطريركية الإسكندرية، وبطريركية أورشليم القدس.

أما الجزيرة العربية فقد كانت راسخة في الوثنية على الرغم من انسلال بعض الأفكار والتقاليد المسيحية إلى الحجاز، وبخاصة إلى مكة، هذه التيارات الروحية، التي وصفها العرب منذئذ بالنصرانية، إلماحاً إلى مدينة الناصرة التي ينتمي إليها يسوع الناصري، وهي التسمية الواردة وحدها، كما هو معروف، بالقرآن الكريم.

على أنه إذا كانت النصرانية قد تعرقل سيرها في المناطق الحضرية، فإن تعاليمها وطقوسها قد تمكنت من الانتشار في عدد من القبائل العربية، وذلك عبر بادية الشام والعراق، فكانت آثارها خصبة، لأنها كانت بمثابة الخميرة التي أعدت العرب في الجزيرة إلى تقبل الإسلام.

ففي هذا البحر الزاخر من المسيحية ظهرت الطوائف المسيحية، التي مازالت حية، ولو بأحجام أقل رقعة، إلى يومنا هذا.

وأمام هذا الواقع الديني الشامل، ينتصب السؤال عن الأسباب التي حولت المسيحيين في سوريا وفلسطين والعراق ومصر إلى طوائف مختلفة، بينما بقيت سائر شعوب الإمبراطورية البيزنطية، في القسطنطينية والأناضول وأفريقيا الشمالية وأوروبا، متمسكة بوحدتها، هذه الوحدة التي ستنفصم هي أيضاً، في القرن الحادي عشر بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وللمرة الثانية، في القرن السادس عشر، بين الكثلكة والبروتستنتية؟.

أول ما يتبادر إلى الذاكرة للجواب عن هذا السؤال هو القول بأن الأسباب – وليست العوامل، بمفهومها السيوسيولوجي- إنما كمنت في المجادلات الصاخبة التي عمّت العاصمة وبلاد الشام ووادي النيل، في القرنين الرابع والخامس، حول شخصية السيد المسيح وطبيعته، وهو جواب يبدو، في أول وهلة، وافياً بالمرام، ولكنه سرعان ما تظهر فيه بعض علامات الاستفهام، إذا ما حاولنا التعمق في العوامل العرقية والقومية أيضاً، التي لعبت دوراً فعالاً في نشوب هذه الانقسامات التي أدت، في النهاية، إلى بروز الكيانات الطائفية.

وسنحاول قدر المستطاع إلقاء بعض الأضواء المستقاة من التاريخ، على هذه الجوانب الخاصة بالمسيحيين الذين باتوا، في اللغات الغربية، موصوفين "بمسيحيي الشرق" وذلك بالطبع بشكل مقتضب جداً، باعتبار أن الغاية من البحث الحاضر ترمي إلى تلمس الجذور الإثنية التي تجعل من هؤلاء المسيحيين عرباً، يتكلمون العربية ويساهمون بالشعور العربي، أسوةً بمواطنيهم المسلمين في الأقطار العربية التي ما زالت تقوم فيها جماعات مسيحية.

أولاً: الانقسامات اللاهوتية:

منذ زمن بعيد تميزت شعوب الشرق، ومنها أيضاً الروم في القسطنطينية بشغفها الزائد للمساجلات اللاهوتية، وقد كانت الفرصة سانحة ابتداءً من القرن الرابع، عندما بدأ آباء الكنيسة والفلاسفة بالتمعن في شخصية السيد المسيح، وذلك بعد أن رفعته رسائل القديس بولس إلى مرتبة ابن الله، الذي أوفده الأب بفعل الروح القدس، بشكل إنسان مخلصاً للبشر من الخطيئة.

وهذه الخصلة قصها غريغوريوس النيسي، أي من مدينة نيسا في آسيا الصغرى، وقد رفعته الكنيسة بعد وفاته إلى مرتبة آباء الكنيسة، بشكل من الطرافة، لا تخلو من الانزعاج مما شاهده في العاصمة ذاتها من هذا القبيل بقوله ما نصّه: «إذا ما سألت أحدهم كم هو ثمن هذه السلعة؟ فيجيبك بالمناقشة حول المولود وغير المولود، وإذا سألته عن ثمن الخبز أجابك: إن الأب أعلى والابن إنما يأتي بالدرجة الثانية، وإذا ما سألته عمّا إذا كان الحمام معداً، أجابك أن الابن إنما هو مخلوق من العدم».

وكم كانت منتشرة الأفكار الجديدة حول طبيعة المسح، هذه الأفكار التي أدت بالنتيجة إلى الانقسامات، التي اتسم بها تاريخ المسيحية في الشرق.

ومن هذه " الهرتقات"، كما كانت تصفها الكنيسة الرسمية برزت ثلاث نظريات رئيسية، في غمرة من الهرتقات العديدة، وقد لعبت دوراً حاسماً في الانشقاقات المسيحية، وهي الآرية، والنسطورية، والمنوفيسية، مع ما كان لهذه الأخيرة من صيغة فرعية تجلت بالمنوثلية، التي أراد صانعوها بابتكارها إيجاد حل وسط لتقريب المنوفيسية من مذهب الكنيسة الرمي.

الآرية:

وهي البدعة التي ابتكرها الكاهن آريوس، في الإسكندرية، وكان من أصل ليبي، وذلك في القرن الرابع، وكان قد أعلن وحدانية الله، وأن المسيح لم يكن سوى كلمة الله المخلوقة، فأوفده الله إلى البشر رسولاً ونبياً.

إلا أن هذه الفكرة، التي كان من شأنها تقويض الإيمان الأساسي بالثالوث الأقدس، الذي اعتنقته وعلمته الكنيسة، دانها المجمع المسكوني، الذي انعقد في مدينة نيسيا، في شمالي غربي آسي الصغرى، عام ٣٢٥م، برئاسة الإمبراطور قسطنطين شخصياً، فكان من نتيجة هذا المجمع إزالة هذه العقيدة من الشرق، إزالةً تامة، وبخاصة تحديد الإيمان بالثالوث الأقدس تحديداً قاطعاً نهائياً.

ومنذ ذلك الحين تحولت الآرية إلى القبائل الجرمانية في أوروبا، إلى أن توصلت الكنيسة الرومانية إلى القضاء عليها، قضاءً مبرماً لكي تظفر في النهاية في القرآن والإسلام.

النسطورية:

أما النسطورية فهي العقيدة التي تحمل اسم صاحبها، نسطور السوري الأصل، الذي شغل مدة سنوات، كرسي بطريركية القسطنطينية، وأخذ يعلن، وذلك بتأثير من الآرية على ما يبدو، أن المسيح، إذا ما كانت في شخصه قد اتحدت الطبيعتان، الآلهية والبشرية، فهذا الاتحاد لا يعني أن عذاب الصليب قد نال من الطبيعة الآلهية، بل أن هذا العذاب قد اقتصر على الطبيعة البشرية وحسب، وهي عقيدة كان من شأنها أن تجعل من الإيمان بأن الله قد بعث بابنه لتخليص البشر، إيماناً بدون أساس، طالما أن عذاب الصليب لم يشمل شخص المسيح بطبيعتيه المتحدتين، الأمر الذي يجعل عندئذ السيدة مريم أم المسيح الإنسان، وليس أم الله، كما يأتي اسمها بصلاة مريم.

وإثر الاحتجاجات المدوية التي قامت من كل جانب على البطريرك نسطوريوس، ولا سيما من شعب القسطنطينية، الذي كان جدّ متعلق بالقديسة مريم أم الله (Theotekos) قضى المجمع المسكوني الثالث، المنعقد في أفسوس، عام ٤٣١م، بالهرتقة على هذا المذهب، وبخلع نسطوريوس عن كرسيه وإرساله منفياً إلى شمال الجزيرة العربية – لجهة البتراء التي كانت واقعة تحت سيادة الإمبراطورية البيزنطية- حيث توفي منسياً.

إلا أن أتباعه الكثر قد اضطروا من جهتهم إلى الهجرة، فلجأوا إلى بلاد فارس، ولاسيما في بلاد بين النهرين، في نصيبين والرها، حيث ازدهرت الكنيسة النسطورية ازدهاراً عجيباً، لدرجة أنها تمكنت، خلال العصر الوسيط، من إرسال البعثات التبشيرية إلى أقطار آسيا الوسطى، وإلى مملكة التتر أو المنغول، وحتى إلى الصين حيث تألفت على أساس مذهبها جاليات عديدة وضخمة.

المنوفيسية:

ولكن المذهب الذي لعب دوراً حاسماً في الانشقاقات الكنسية، إنما كان عقيدة الطبيعة الإلهية الواحدة، الموصوفة بالمنوفيسية.

وأول من بشّر بها كان ناسكاً ورعاً في القسطنطينية، واسمه اتويشيوس، وذلك في أوائل القرن الخامس، ولكن مؤسس هذه العقيدة إنما كان في النهاية ساويريوس الكبير، بطريرك إنطاكيا في القرن السادس.

وهذه العقيدة كانت تقول بالطبيعة الإلهية الواحدة بالمسيح دون الطبيعة البشرية، التي زالت من الوجود بفعل تجسّد ابن الله في هيئة إنسان.

وقد انتشرت هذه العقيدة على الأخص في سوريا ومصر، وحتى أن أرمينيا ذاتها قد اعتنقتها، ولكن بإضفاء تفسير خاص عليها.

وكان لابد للكنيسة الرسمية من أن تثير حيال هذه العقيدة ردة فعل قاسية، فتجلت ردتها بادئ بدئ، في المجمع المسكوني الذي انعقد في مدينة خلقيدونية، في شمال آسيا الصغرى، بقرب العاصمة، عام ٤٥١م، حيث صدر القرار بدينها وتحريمها، وإعلان عقيدة الكنيسة الرسمية أي الكاثوليكية– الأرثوذكسية، المبنية على الإيمان باتحاد الطبيعتين، الإلهية والبشرية، في شخص المسيح، اتحاداً غير قابل للانفصام.

الكنائس المنوفيسية:

لقد كان مجمع خلقيدونية فاتحة الانشقاق العميق بين الكنيسة الرسمية والكنيسة السريانية في سوريا، والكنيسة القبطية في مصر، كما كان هذا المجمع منطلقاً حافلاً بالاضطهادات من جانب الدولة البيزنطية وكنيستها الرسمية، كما أنه قد أثار في سوريا ومصر موجة من السخط ضدهما.

المؤرخون، على اختلاف نزعاتهم، من شرقيين وغربيين، ومن كاثوليك وسريان، وصفوا الأشكال الفظيعة التي اتخذتها هذه الاضطهادات من مذابح جماعية، وتقتيل فردي بالسيف والنار، ومن تشريد خارج المدن والأديرة، إلى ما هنالك من أنواع التعذيب التي تقشعر لها الأبدان، وكل ذلك باسم يسوع الناصري، رسول المحبة والرأفة، وهي حالة حدت كاتباً سورياً كبيراً، إميانوس مارسلانوس، على القول:

«لم ير التاريخ بهائم متوحشة أشد افتراساً وقساوةً من المسيحيين بعضهم لبعض».

وكان من أثر هذه الأعمال أن تأسست في بلاد الشام الكنيسة السريانية، وفي وادي النيل الكنيسة القبطية، وهو عمل جبار يعود الفضل بالمبادرة به وإنجازه، إلى كاهن سرياني، يعقوب البرادعي، أي في السريانية ذو الثياب الرثة والممزقة، التي كان يرتديها، للتخفي عن أعين الشرطة البيزنطية، التي كانت تلاحقه في كل مكان.

ولا غرو أنه كان من أثر هذه الاضطهادات، ليس فقط إنشاء كنيسة وطنية في سوريا، وهي الكنيسة السريانية، وكنيسة وطنية في مصر، هي الكنيسة القبطية، وذلك بجانب الكنيسة الرومية الرسمية، بل وعلى الأخص انبثاق شعور عميق من العداء والكراهية للسلطة البيزنطية، هذا الشعور الذي سيمهد الدروب للفتح العربي في القرن السابع.

وأمام هذه الانتفاضات التي ظهرت في الشام ومصر قبيل الإسلام، تساءل المؤرخون الغربيون، أمثال الروسي فاسيلييف، والروماني نقولا يورغا، والفرنسي شارل ديل والفرنسي أرنست رينان، والإنكليزي ألفرد بتلر، والنمساوي أرنست شتاين، وعدد كبير من سواهم، عما إذا كانت هذه الحالة النفسية التي هيمنت على أهل الشام ومصر إزاء الحكم البيزنطي، بل هذه الانشقاقات التي قضت على وحدة المسيحية الشرقية في القرنين الخامس والسادس، عما إذا كانت وليدة الاختلافات في العقيدة حول شخصية المسيح فحسب، أم أن ثمة عوامل أخرى قد ساهمت في انطلاقها، وهو الوجه من تاريخ المسيحيين في الشرق، الذي وجد فيه المؤرخون الغربيون الذين ذكرنا، أن لتلك الانتفاضات أسباباً قومية، كانت سورية في سوريا وقبطية في مصر، وأنها ارتدت وقتئذ شكل الحركات الدينية، لأن الدين إنما كان الرداء الذي كانت تتجلى به في ذلك العهد، كما سيجري بعدئذ في الإسلام، الحركات السياسية والاجتماعية.

وهي نظرة إلى حقيقة تلك الحركات، يقتضي توضيحها بالعودة إلى الجذور العرقية التي تمتُّ إليها شعوب هذه المنطقة، الموصوفة اليوم بالشرق الأوسط.

ثانياً: الأصول السامية:

مما لا شك فيه أن معظم الشعوب القاطنة في الوقت الحاضر الأقطار التي يتألف منها الهلال الخصيب، وهو التعبير الذي أوجده، في أوائل هذا القرن، المؤرخ الأثري الأمريكي، جيمس بريستد (James Breasted) بوصفه الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية بالـ (Fertile Crescent)، إنما هي محض سامية في أصولها.

والساميون الذين ورد ذكر جدهم الأعلى، سام بن نوح، في التوراة، إنما يؤلفون مجموعة واسعة من الأقوام التي تربطها صلة النسب من جهة، وعلاقة التربة من جهة أخرى، وهذه الأقوام، التي ظهرت منذ فجر التاريخ

بشكل قبائل وعشائر، هي التي استوطنت بلاد الشام والعراق – ولربما أيضاً، وعلى حد قول بعض العلماء – مصر ونوبيا والحبشة.

والإشكال الذي أثار الاهتمام منذ أوائل القرن الماضي كان في التحري عن المحيط، الذي كانت تنطلق منه الأقوام السامية.

وللجواب عن هذا السؤال، توصل الألماني أدولف شبرنغر (A. Sprenger) في أواسط القرن التاسع عشر، إثر دراسات وتحريات معمقة، إلى القول الجازم «إن الساميين جميعهم عرب»، لأنهم قد نبتوا من الجزيرة العربية، فتبعه بهذا الرأي، استناداً إلى أدلة جديدة، عالمان ألمانيان آخران، شرادر (Schrader) وفنكلر (Winkler)، ولهذا الأخير عبارة معروفة وهي «أن منبت الساميين الأصلي إنما هو الجزيرة العربية».

وهذا الرأي قد تحول إلى نظرية علمية بفضل العلامة الإيطالي ليوني كيتاني (Leone Caetali)، صاحب "حوليات الإسلام" الضخمة (Annali) ففي هذا المؤلف، وبخاصة في مؤلف آخر بعنوان "دراسات في التاريخ الشرقي" (Studi di,Storia Orientale) قد توصل إلى الدلالة على أن القبائل كانت تنفر، تباعاً، خلال الأزمنة الغابرة ومنذ أكثر من خمسة آلاف سنة قبل المسيح، من الجزيرة العربية منذ زمن بعيد جداً بسبب تحولها إلى صحاري رملية وبوادٍ عارية من النبات، وتزايد الأعداد البشرية في القبائل، تزايداً مستمراً، الأمر الذي كان يدفعها إلى اجتياز حدود الجزيرة، لكي تنصبّ على الأقطار المجاورة، فتغمرها كمياه الأنهار الصاخبة ، وتحتل أراضيها، وتشيد فيها الممالك والإمبراطوريات، التي كانت جميعها سامية في أصولها العرقية، باستثناء قبائل سومر (Sumer)، التي مازال العلماء مختلفين حول تعيين أوطانها الأصلية.

وهكذا كاد الإجماع اليوم أن يتم بينهم على أن الساميين قد وردوا، تباعاً، خلال الأزمنة الغابرة، من الجزيرة العربية، وإن كانت آراؤهم ما برحت متضاربة حول الأسباب التي كانت تدفعهم، دورياً، إلى اجتياز شواطئ الجزيرة والفيض على أقطار الهلال الخصيب.

وهذه النتيجة لتحريات وأبحاث طويلة، فقد لخصها المؤرخ الفرنسي ألكسندر موره (Alexandre Moret)، بخمس من الأمواج السامية الآتية جميعها من الجزيرة العربية، على الوجه التالي:

- بلاد عقاد أو آكاد (Accad)، في جنوبي العراق، وهي متاخمة لحدود الجزيرة العربية في الألف الرابع قبل المسيح.

- الكنعانيون، وهم فئتان، فئة كنعانيي سواحل بلاد الشام، الذين أسماهم الإغريق بالفينيقيين، مع العلم أن مدنهم الدولية (بفتح الدال) بمعنى الدولة- المدينية، كانت تتسمى بالكنعانيين. وفئة كنعانيي الداخل، الذين امتد انتشارهم إلى فلسطين وبعض أقسام من سوريا الوسطى، وذلك حوالي عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد، أي في أواخر الألف الثالثة.
- الآراميون في سوريا من شمالها حتى دمشق، والعبريون في فلسطين، قريب عام ١٥٠٠،أي في أواسط الألف الثاني.
- الأنباط بجوار عام ٥٠٠، وذلك كله بالطبع قبل الميلاد.
- وفي القرن السابع، بعد الميلاد، اندفعت الموجة الأخيرة، التي أتت بالعرب، تحت راية الإسلام.

وهي موجات قد توقفت ظاهراً، منذ الفتح العربي، بشكلها العنفي، لكي تتحول إلى حركات تسللية، كانت تغذى بصورة متواصلة، سكان سوريا الساميين بدم قبائلها، فكان منها من يبقى على حياة البادية والرحل، وسواها على الحياة الحضرية في أنحاء سوريا كافة، كما أثبت ذلك المؤرخ الفرنسي رينيه دوسو Rene Dussaud، في كتابين معروفين.

وهذا مع الإشارة إلى أن الجغرافي الإغريقي سترابون Strabon، قد أشار في مؤلفه المسمى "الجغرافيا"، أن جبل لبنان كانت تقطنه، في القرن الأول من الميلاد، قبائل وعشائر عربية وإيتورية (علماً بأن الإيتوريين هم أيضاً من العرب)، وإن هذه الأقوام كانت تعيش من الغزو وسائر وسائل الحياة البدوية.

في ضوء هذه المعطيات التاريخية، قد نستطيع إجراء المحاولة للتحري، على وجه التقريب، عن الأصول العرقية لأهالي بلاد الشام، قبيل الفتح العربي في القرن السابع، مع الملاحظة أنه من العسير تطبيق ذات الطريقة على أقباط مصر، الذين نبقيهم خارج بحثنا الحاضر، لأسباب عدة ومنها على الأخص لأن للشعب القبطي المصري، الذي تحول إلى الإسلام فيما بعد، لكي لا يبقى منه في الوقت الحاضر سوى ستة أو سبعة ملايين فقط، جذوراً عرقية ممتزجة بالسامية والحامية السوداء، التي لما يتوصل العلم إلى توضيحها.

ثالثاً: المسيحيون في سوريا والعراق:

نحصر البحث بسكان سوريا والعراق، علماً بأن سوريا التاريخية إنما تشمل أيضاً فلسطين، وبالطبع لبنان، تاركين خارج هذا الإطار الأقباط في مصر، الذين كان يتألف من كثرتهم الساحقة شعب مصر قبل الإسلام.

فمن المسلم به إذاً أن الجماعات التي كانت قاطنة في سوريا والعراق، قبل الفتح العربي، كانت مسيحية برمتها، كما أنه من المتفق عليه بين المؤرخين أن هذه الجماعات كانت منتمية إلى المنوفيسية في سوريا، وإلى النسطورية في العراق، وذلك بجانب جماعات كان لها أيضاً قيمتها العددية، مؤلفة من الروم، الخاضعين للكنيسة الرسمية في سوريا ومن المنوفيسيين أتباع كنيسة إنطاكيا اليعقوبية في العراق، وكان بعضهم في سوريا من أصل إغريقي والبعض الآخر من الآراميين، بينما كانوا في العراق، بمعظمهم على الأقل، من الآراميين ومن غير الفرس الإيرانيين.

إلا أن في شمال سوريا، وبالتخصيص في مدينة خوروس الواقعة قرب مدينة عزاز، وكذلك حول دير كان كائناً على العاصي قرب مدينة أفاميا، وهو المكان المعروف اليوم بقلعة المضيق، تكونت جماعة الموارنة، الذين تسموا باسم مار مارون، منشئ هذه الجماعة، وقد عاش ناسكاً في القرن الرابع.

وحول العقيدة التي انبثقت عنها هذه الجماعة، التي هي آرامية في أصول أتباعها، تضاربت الآراء. فهنالك شبه إجماع لدى المؤرخين والمبشرين الغربيين، على أن هذه الجماعة قد نشأت بوحي وعلى أساس المنوثيلية، القائلة بأن للمسيح مشيئة واحدة في طبيعته الإلهية والبشرية، في حين أن المؤرخين والأحبار والكهنة من الموارنة إنما ينكرون بشدة ما يعتدونه وصمة في "أرثوذكسيتهم الدائمة" Perpetuelle Orthodoxie.

ومهما كان من الأمر فالواقع هو أن هذه الجماعة كانت في وطنها الأصلي وليدة تربته مما يعني أنها كانت، ولم تزل، آرامية بعرقيتها، وإذا ما انتقلت، ابتداءً من القرن التاسع، على أغلب الظن، إلى أعالي جبال لبنان الشمالية، فإنما بقيت محافظة على وحدتها، وبالطبع، على أصولها، مما يدعو إلى القول بأنها، هي أيضاً سامية الأصل، وعربية المنشأ.

إلا أن في الواقع كانت تلك الجماعات في سوريا والعراق خليطاً من الآراميين والعرب، فكان العنصر الآرامي سائداً في المدن الساحلية والداخلية، وعلى الأخص في القرى والأرياف، بينما كان العرب، وهم كانوا ومازالوا منضويين في إطاراتهم القبائلية والعشائرية، متوطنين منذ الأزمنة البعيدة،

بأعداد كثيفة في المناطق الشرقية من سوريا والمناطق الغربية والشمالية من العراق.

وهكذا نشأت وازدهرت في تلك البوادي إمارة الغساسنة في سوريا، وكانوا يعتنقون المذهب اليعقوبي، ومملكة اللخميين في الحيرة من أعمال العراق، التي كان ملوكها ورعاياها من النسطوريين، مع الملاحظة أن دولاً عربية قد نشأت أيضاً في تلك الأصقاع، قبل القرنين الخامس والسادس، اشتهرت منها جمهورية البتراء في الأردن، ومملكة تدمر (بالميرا) في سوريا.

هذا وقد كانت الآرامية اللغة المهيمنة في ذلك العهد، وقد بقيت الآرامية منتشرة، مدة ستة قرون على الأقل، لدرجة أنها غدت اللغة الدولية، وأيضاً الرسمية حتى في المملكة الفارسية – وكانت هذه اللغة الدارجة في فلسطين، بدلاً من العبرية التي اندثرت كلغة محكية ومكتوبة، فانزوت في طقوس العبادة لدى اليهود- ومن المعروف عن المسيح أنه بشّر بالآرامية وليس بالعبرية، وأن آخر كلماته على الصليب إنما لفظها بالآرامية.

غير أنه بجانب الآرامية كانت العربية اللغة الدارجة في بوادي الشام والعراق، وأيضاً في المدن والقرى المتاخمة، وعلى الأخص في حمص وقنسرين وفي وادي الأردن وفي الشام، وفي الأنبار والمدائن والموصل والرها ونصيبين... الخ في العراق والجزيرة، وذلك كله بجانب اللغة الإغريقية، لغة الدولة والدواوين في سوريا، والفارسية لغة الساسانيين في العراق.

ومن المعلوم أن اللغة إنما تؤلف أحد المؤشرات الدالة على الأصول العرقية، بل هي المؤشر الأكبر في الجماعات الدولية، لدرجة أنه بفضل اللغة القديمة جداً في الهند، والمعروفة بالسانسكريتية، قد توصل العلماء إلى كشف الغطاء المجهول الذي كان يحجب أصول الشعوب الآرية الموصوفة أيضاً بالهندو- أوروبية، أو الهندو- آرية.

فإذا كانت الآرامية الممتزجة بالعربية اللغة العامية والأدبية في الوقت ذاته، في جماعات سوريا والعراق المسيحية، فلأن هذه الجماعات إنما كانت منحدرة من أصل سامي، وإن أصولها القريبة والبعيدة كانت متصلة بالجزيرة العربية، وذلك أثر الموجات البشرية الكثيفة التي ما فتئت، مدة أربعة أو خمسة آلاف سنة، تجتاح أقطار الهلال الخصيب.

رابعاً: القابلية النفسية للفتوحات العربية:

وكان من الطبيعة الإنسانية أن تولد تلك الانقسامات اللاهوتية، والاضطهادات الدينية، نفوراً وكراهية وعداءً في سوري ومصر، حيال الإغريق في بيزنطية، كما كانت عليه الحالة النفسية في العراق تجاه الساسانيين الفرس، الذين لم يمتنعوا هم أيضاً عن اللجوء إلى العنف وسفك الدماء لإخضاع المسيحيين، من نساطرة ويعقوبيين، إلى سياستهم المجوسية.

وكان لابد للأصول السامية من أن تهيئ النفوس لهذا النفور نحو المملكتين العظميين في ذلك الحين، وهي التي دفعت سكان سوريا والعراق على الأخص إلى أن يتوسموا الخير وينشدوا الخلاص على يد الفاتحين العرب، ليس فقط في محنتهم الدينية، بل أيضاً من ظلم الضرائب وكثرتها التي كانت تثقل كاهل المكلفين، في أقطار الهلال الخصيب ووادي النيل.

وهذه المعطيات أجمع المؤرخون على أنها ساهمت كثيراً بتسهيل سبل النصر للفتوحات العربية، لدرجة أنهم جزموا بأن سكان هذه الأقطار قد تقبلوا العرب بقلوب رحبة، لأنهم رأوا فيهم محررين لا غزاة.

وحسبنا الاستشهاد ببعض الأقوال من هذا القبيل، كميخائيل السرياني، بطريرك السريان الأرثوذكس في القرن الثاني عشر، أي بعد خمسة قرون من الفتح، وفي تاريخه الطويل نجد عبارات استهجان لسياسة الروم كالتالية:

«لأن الله هو المنتقم الأعظم، الذي وحده على كل شيء قدير، والذي وحده إنما يبدل ملك البشر كما يشاء، فيهبه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبر، ولأن الله قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر، من نهب كنائسنا وديراتنا، وتعذيبنا بدون أية رحمة، فإنما قد أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الروم... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم وحقدهم واضطهاداتهم وفظاعاتهم نحونا».

وهي شهادة رهيبة، نجد مثلها، بما يتعلق بأقباط مصر في تاريخ يوحنا النيقوسي Jean de nikiou، الذي تولى أسقفية نيقو في دلتا النيل، بعد فتح مصر بقليل، وكذلك في تاريخ سواروس الأشموني، الذي جاء من بعده، وهي شهادة لاشك بأنها تدل على ما كان عليه مسيحيو مصر وسوريا والعراق من الشعور نحو البيزنطيين والفرس من جهة، وحيال العرب المسلمين من جهة ثانية.

ولأنهم قد تحققوا من هذا الوضع النفساني، الذي كان عاملاً حاسماً في إنجازات الفتح العربي، بسرعة مذهلة، فقد توافق المؤرخون الغربيون في

عصرنا على إعلان هذه الحقيقة أمثال الهولندي دي غوج، والبريطاني ألفرد بتلر، والفرنسي أرنست رينان وعدد كبير من سواهم.

ونكتفي في هذا المضمار بإيراد مقطع من دي غوج، في بحثه العميق حول فتح سوريا، الصادر في أوائل القرن الحالي، وفي معرض تذكيره بالتبعة التي يتحملها الإمبراطور هراقيليوس، أو هرقل، في ضياع سوريا، بسبب سياسته الخرقاء، بفرض تعاليم المجمع الخلقيدوني والمنوثلية، بوسائل شتى من الاضطهاد، وذلك مع إشارته إلى ازدياد الضرائب التي أثقلت كاهل سكان سوريا، مما حدا هؤلاء السوريين على اليقين بأن سلطان العرب سيكون أكثر رحمة وأشد حرية لمعتقداتهم. يقول هذا المستشرق الهولندي أن العرب والسوريين معاً كانوا يرون في بلاد الشام، جزءاً لا يتجزأ، مكملاً من الجزيرة العربية، وذلك بقوله ما نصه:

«منذ أبعد الأزمنة كانت سوريا موطناً للعرق السامي، وعلى الرغم من أن الحكومة كانت، في عهد بيزنطية، متمركزة في القسطنطينية، فإن الشعب كان بمعظمه سامياً وحتى عربياً، ولذلك لم يكن من أثر الفتح العربي الاستيلاء على قطر غريب، الغاية المباشرة منه جباية الضرائب من سكانه، وإنما تحرير جزء من الوطن العربي الذي كان رازحاً تحت طغيان الاحتلال الأجنبي، وبالتالي استعادة عدد عظيم من المواطنين المهيئين نفسياً لإشراكهم بالدفاع عن مجد الله ونبيه».

ولا غرو أن السياسة التي اتبعها المسلمون منذ أول فتوحاتهم قد أعدت تلك الجماهير في البلاد التي دانت لهم، إلى تقبل سلطاتهم، وهي سياسة كانت، هي أيضاً فتحاً بذاتها في عالم الفكر والدين. ومن المعلوم أنها استندت إلى آيتين كريمتين، الواحدة التي تقضي أن ﴿لا إكراه في الدين﴾، والثانية أن على أهل الكتاب، الذين يختارون البقاء على دينهم ﴿أن يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾.

فمن الممكن وبدون مبالغة القول بأن الفكرة التي أدت إلى انتجاع هذه السياسة الإنسانية، "الليبرالية"، إذا جاز استعمال هذا الاصطلاح العصري، إنما كانت ابتكاراً عبقرياً، وذلك لأن للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام، من طريق الجهاد، بأشكاله المختلفة، من عسكرية ومُثلية وتبشيرية، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعور الخاضعة لسلطانهم أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها – وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى

الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين، كما كان الأمر عليه في المملكتين العظميين التي كان يتألف منهما العالم القديم- وهو المبدأ بل القاعدة السياسية، المعروفة بصيغتها اللاتينية ejus region cujus religio.

هذه القاعدة التي لم تندثر في البلاد الغربية إلا بفضل الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وكان لابد إذاً لهذه السياسة الإسلامية، المتحدرة عن القرآن، من أن تسفر عن نتيجتين حاسمتين ما لبثت آثارهما ماثلة في الشعوب العربية، وهما قيام الطوائف المسيحية على أساس النظام الطائفي من نحو، ودخول سكان الأقطار التي فتحها العرب في دين الإسلام من نحوٍ آخر.

فتلك الجماهير الكثيفة التي تشكل كثرة أهالي سورية ومصر والعراق، إنما كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة، منذ القرن الأول من الهجرة، بملء حريتها، في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى، موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة إنما هم شهود عدل، عبر التاريخ، ليس على سماحة الإسلام – وهو تعبير لا يفي بالواقع، لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي، إنما كان مبنياً على قاعدة شرعية وليس على شعور، من طبيعته أن يتضاعف أو أن يضعف- وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي أنزله القرآن.

وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة، بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة في عصرنا الحاضر، الذي زال فيه نظام الذمة لكي يحل محله نظام الحريات العامة، المنطوية، لزاماً على مبدأ المساواة التامة في المواطنية.

ألم يكن الرسول العربي الذي قال في حديثه الشهير:

«ليست العربية بأحدكم من أبٍ ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».

بيروت في ١٩٨١/٣/٤م
الدكتور إدمون رباط

وثيقة رقم ٢

«من تاريخ سورية الدنيوي والديني»
للمطران يوسف الدبس

أسقف بيروت الماروني
(أوائل القرن العشرين)
ج٥: ص١٠٤ إلى ص١٠٩

غدر الدولة البيزنطية بالموارنة

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرنين الخامس والسادس القديس مارون وتلامذته وتكاثر رهبانهم وأديارهم وتوافر الجمهور المنتمي إليهم والمسمى باسمهم. ونذكر في هذا العدد طورهم الدنيوي في هذا القرن وذلك درس نلقيه إلى أبناء ملتنا وجميع مواطنينا نحذرهم به من التهور في مهواة المناواة للسلطة السائدة فيهم بوسوسة أصحاب الأغراض البعيدين عنهم، فمن المعلوم أن الخلفاء الراشدين صرفوا اهتمامهم عند أخذهم سورية وطردهم ملوك الروم منها إلى فتح مدنها ولم يكترثوا لسكان جبالها لقلة أهميتها وعدم المنفعة منها ولتعسر مسالكها وأن ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبكوا أمرها ولا تستقيم حالها ليتيسر لهم العود إليها، كما حاولوا مرات فلم يظفروا. فمن ذلك أنهم وسوسوا للموارنة وكانت مساكنهم حينئذ في الجبال من جبال الجليل إلى جبال إنطاكيا فلبكوا حكومتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطروا بعض الخلفاء أن يعقد صلحاً مع ملوك الروم على شرائط سيأتي ذكرها ومنها أن يكبتوا الموارنة الذين تلقبوا عندئذ بالمردة ويصدوهم عن غزواتهم. وكانت النتيجة حينئذ أن هؤلاء الملوك البيزنطيين أنفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيجوهم على مخالفة رضا حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الأمرّين ومكروا بهم فسبوا اثني عشر ألفاً من نخبة شبانهم وأبعدوهم عن أوطانهم وجيّشوا عليهم وخربوا أكثر بلادهم وحرقوا أديارهم وعمدوا إلى القبض على بطريركهم واتصلوا إلى طرابلس على مقربة منه ولو لم يتدارك الله أمرهم بالنصر على الجيش البيزنطي لأبادوهم عن آخرهم. فهذه هي الأمثولة التي نريد أن يتمثل بها أبناء ملتنا ومواطنونا ليخلصوا في الطاعة للحكومة السائدة عليهم. وإليك تفصيل هذه الأحداث:

قد روى كثيرون من علماء أمتنا أنه كان للموارنة في القرن السابع سطوة وصولة حتى ضبطوا كل ما كان من إنطاكيا إلى أطراف الجليل. على أننا نؤثر أن نروي أخبار هذه الأحداث عن كتب المؤرخين القدماء التي أخذ علماؤنا عنها هذه الأخبار لأنها أبعد مجالاً عن مظنة الغرض والغلو والتعصب لأمتهم. قال توافان المؤرخ الشهير (في تاريخ السنة التاسعة للملك قسطنطين اللحياني): «في هذه السنة خرج المردة من لبنان فضبطوا كل ما

كان من الجبل الأسود (المعروف اليوم بالجبل الأقرع فوق السويدية) إلى المدينة المقدسة (أورشليم) واستحوذوا على قمم لبنان وانضم إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبح عددهم في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة. وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبته حتى فكروا بأن الله محامٍ عن مملكة الرومانيين. وأرسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح ويعدون بوفاء جزية كل سنة. فتقبل الملك وفدهم بالإعزاز والتكريم وأجابهم إلى سؤالهم وأوفد معهم إلى سورية البطريك يوحنا المسمى بتسيكود وكان من رجال الندوة في حكومته ومتصفاً بالخبرة والحكمة وحسن التعاطي والمداولة مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح. ولما بلغ سورية قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته. وبعد المداولة بشروط الصلح قرّ رأيهم على كتابه عهدته موثقة باليمين على أو يدفع العرب كل سنة إلى الرومانيين ثلاثة آلاف ذهب وثمانية آلاف أسير وخمسين جواداً من الخيل الجياد وأبرم الصلح بين الرومانيين والعرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة ودونت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريق نسخة وعاد ذاك الرجل الشهير البطريك يوحنا المتواتر ذكره إلى الملك بهدايا نفيسة جداً». وقال توافان أيضاً في تاريخ السنة الأولى لعبد الملك بن مروان:«في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سورية وولى عبد الملك في أمته وتواترت غارات المردة في جوار لبنان وثقلت وطأة الطاعون. فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد أبرمت في أيام معاوية. وأرسل وفوداً إلى الملك واعداً أن يدفع كل سنة ثلاثمائة وخمسة وستين ديناراً وكذلك من العبيد وليس بأقل من ذلك من الخيل الجياد» وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستنيانس الملك: «في هذه السنة أرسل عبد الملك رسلاً إلى الملك لإبرام عهدة الصلح فعقد الصلح على الشروط الآتية وهي أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصد غزواتهم. وعبد الملك يدفع إليه في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً وأن الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وأرمينيا وإيباريا قسمة عادلة سويّة. وأرسل الملك بولس ماجيستريانس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكها ووقع عليه أمام الشهود وعاد ماجيستريانس مكرماً إلى الملك. وأبرز الملك أمراً بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن أوطانهم، وقد أضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لأن جميع المدن المجاورة للبنان من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كانت ضعيفة وكانت خالية من السكان بسبب غارات المردة الذي كبتهم الملك. وقد توالت من ذلك اليوم إلى الآن المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطو العرب». وقال في تاريخ السنة

الثانية ليوستنيانس: «إن الملك مضى في هذه السنة إلى أرمينيا فقابل هناك عسكر المردة الذي كان قبلاً في لبنان بمنزلة سور نحاسي لمملكته فدكه بيده». وقال في تاريخ السنة الخامسة للملك المذكور: «في هذه السنة نقض الملك يوستنيانس لطيشه عهدة الصلح المبرمة مع عبد الملك». وذكر ما رويناه في الكلام على عبد الملك من أمره بنقل سكان قبرص وتعنته في قبول الدنانير الحديثة التي صكها عبد الملك إلى أن قال ما ملخصه: «ولما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يسأل يوستنيانس ألا ينقض العهد المبرم بينهما فظن يوستنيانس أن عبد الملك يخاف سطوته ولم ينتبه إلى أن العرب يتطلبون بعد كبت المردة علة لنقض عهدة الصلح. فكتب يوستنيانس إليهم أنه لا يريد العمل بالشروط المتفق عليها فأجابوه هم أنهم متشبثون بها وأنه إذا نقضها وأرغمهم على الحرب فيكون هو علة لنقضها. والتقى جيش الملك وجيش العرب في الكبدوك فأرسلوا يسألونه أن لا يخالف العهد الوثيق الإبرام بينهما باليمين وإلا فينتقم الله من المخالف. فأعارهم أذناً صماء واقتحم جيشهم فعلقوا الصحيفة المكتوبة عليها عدة الصلح على رمح بمنزلة راية لهم فدارت الدوائر على يوستنيانس وجيشه» كما رأيت قبلاً فهذا ما ترجمناه بما أمكن من الدقة عن تاريخ توافان.

وإليك ما قاله شدرانس في موجز تاريخه: «في السنتين الثامنة والتاسعة (لقسطنطين اللحياني) دخل المردة لبنان فاستحوذوا على كل ما كان من الجبل الأسود (الجبل الأقرع) إلى المدينة المقدسة وضبطوا أعالي لبنان وتألب إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبحوا في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة. فوجس منهم معاوية ومن معه وفكروا بأن الله يحامي بعونه مملكة الرومانيين فأرسلوا رسلاً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح فأرسل الملك بيساكود إلى السراكسة واتفق معهم على الصلح ودونوا صكه في صفائح على شريطة أن يدفع السراكسة كل سنة إلى الرومانيين عشرة آلاف ذهب (وفي كتاب زوناراس ثلثة آلاف) ومائة عبدٍ وخمسين جواداً أصيلاً. ولما علم ذلك سكان المغرب طلبوا هم أيضاً الصلح. وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستنيانس: «في السنة الأولى لملكه أرسل إليه عبد الملك رسلاً لإثبات الصلح. واتفقنا على أن الملك يحصر عسكر المردة في لبنان ويمنعهم عن الغارات ويدفع العرب إلى الرومانيين في مقابلة ذلك في كل يوم ألف دينار وجواداً وعبداً، فأرسل الملك بولس ماجستريانس إلى عبد الملك لإبرام العهد فوقع على العهدة أمام الشهود وأرسل الملك قائداً فأبعد اثني عشر ألفاً من

المردة فأضرّ ذلك بمصلحة المملكة الرومانية فكل ما يستحوذ عليه العرب الآن من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كان واهناً لا قوة فيه وخالياً من السكان بسبب غزوات المردة فكبتهم أنزل بالمملكة الرومانية مضار كبيرة إلى اليوم. فيوستنيانس لم يكن حينئذ أكمل السادسة عشرة من عمره فتصرفه كان على غير هدى وقال في تاريخ السنة السادسة ليوستنيانس: «في هذه السنة نقض يوستنيانس بحماقة عهدة الصلح مع عبد الملك لأنه أراد أن يأخذ جالية من قبرص لغير داعٍ. وأنف من أن يأخذ من عبد الملك الدنانير التي صكها حديثاً، ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقالبة (من اسكلافونيا) نقض المعاهدة المذكورة وزحف بهذا العسكر بكتائب من الفرسان إلى آسيا الصغرى وأكره العرب بطيشه على نقض المعاهدة. ولما التقى الجيشان أقام العرب الحجة عليه ودعوا إلى الله أن ينتقم ممن نقض العهد. فلم يقف الملك بل سارع إلى تسعير نار الحرب. فعلق العرب صفيحة المعاهدة على علمهم ووثبوا على الجيش الروماني وكان قائدهم يسمى محمداً فتقهقر العرب أولاً ثم تغلبوا على الجنود الرومانيين وقتلوا كثيرين منهم. وقرض الملك من بقي من الصقالبة مع أطفالهم ونسائهم».

وقال زوناراس (في ك١٤ من تاريخه في كلامه على يوستنيانس): «قد استوى يوستنيانس على منصة الملك وعمره ست عشرة سنة. وكان يدبر جميع مهام المملكة على هواه. فأوقع المملكة في مهالك كثيرة منها أن شعباً يلقب بالمردة كان قد استحوذ على مشارف جبل لبنان في أيام قسطنطين اللحياني. وكان العرب يخشون صولتهم حتى حملوهم على طلب الصلح من ملوك الرومانيين كما مرّ. (كان زوناراس قد ذكر عقد هذا الصلح قبيل كلامه هذا كما رويناه عن غيره). ولما كان معاوية قد توفي وخلفه عبد الملك أرسل رسلاً إلى الملك الذي ولي حديثاً سائلاً إياه تجديد الصلح وأن يبعد المردة عن لبنان وإذا رضي هذا الشرط يدفع هو إلى الرومانيين في كل يوم ألف دينار ومملوكاً وجواداً من الجياد. ولما أبرما هذه العهدة أبعد الملك اثني عشر ألف مقاتل من المردة عن لبنان فاطمأن العرب ولم يبق ما يخشونه فأنزلوا بالمملكة الرومانية مصائب شتى. وأرسل يوستنيانس لانتيوس بجيش فأخضع إيباريا وألبانيا وغيرها لسلطته ونقض عهدته مع البلغار ولم يرض أن يفوه الجزية بل غزا الأمصار الغربية وألب منها جيشاً ثلاثين ألفاً من نخبة الشبان وأعزهم وسماهم الشعب المختار فعظم سروره بهم واعتماده عليهم حتى أراد أن ينقض عهده للعرب أيضاً متمحلاً بذلك سبباً بأنهم يؤدونه مال العهدة دنانير ليست

عليهـا صـورة الملـك الرومـاني وأعلـن علـيهم الحـرب معتمـداً لا علـى جـيش الرومانيين بل على شعبه المختار الحديث...

وثيقة رقم ٣

«تاريخ الموارنة»

الأب بطرس ضو

بيروت ١٩٧٦
ج٣: ص٢١١، ٢١٢، ٢١٣

غدر الدولة البيزنطية بالموارنة

وبحسب التقاليد والنصوص المارونية القديمة نشبت حرب بين الموارنة بقيادة مار يوحنا مارون بطريركهم الأول وبين عسكر أرسله الملك البيزنطي حوالي سنة ٦٩٣ للتنكيل بالموارنة. هذا يتوافق مع المعارك التي نشبت بين الجراجمة الموارنة والعرب بعد عقد المعاهدة المذكورة، تلك المعارك التي يشير إليها البلاذري ويصف تطوراتها. لم يكن تنفيذ بنود المعاهدة القاضية بترحيل المردة من لبنان سهلاً إذ أبدى المردة مقاومة لهذا التدبير ثم ثار الجراجمة من جديد فتعاون الملك البيزنطي والخليفة على القضاء على المقاومة بالمكائد تارة وبالحرب طوراً. هذا أدى حسب البلاذري إلى مقتل القائد الرومي وتفرقة الجراجمة في لبنان وسوريا. من الطبيعي أن يكون في هذه الظروف حصل بعض التدخل العسكري من قبل الملك البيزنطي بمساندة الخليفة ضدّ الجراجمة أي الموارنة. هذا معنى الحرب التي تقول التقاليد والنصوص المارونية أنها نشبت آنذاك بين مار يوحنا مارون وأتباعه من جهة أي الموارنة الجراجمة المردة والعسكر البيزنطي من جهة ثانية.

وهنالك نصوص تاريخية قديمة يتناقلها الموارنة وتتضمن بعض تقاليدهم. من هذه الوثائق تاريخ نسخه داوود بن إبراهيم في سنة ١٣١٥م يتضمن أخباراً مفصلة عن المردة ومعاركهم وأسماء قوادهم. جاء فيه أن حملة المردة الأولى التي جرت بأيام معاوية كان قائدها اسمه يوسف. صار هذا ملكاً على جبيل وجبل لبنان وخاض معارك في أرمينيا وانتصر فيها وكان يقود جيشاً من اثني عشر ألف جندي. ثم هاجم بلاد معاوية وكان الفوز حليفه:

«من بعد هؤلاء دخل على تدبير جبيل وجبل لبنان يوسف الملك، واصطحب معه اثني عشر ألف فارس بطل، وسار بهم إلى بلاد أرمينيا، وظفر بجيش سابور، وكان قائده سرجيس الأرمني، فهدم معاقله وحصونه وسلب نعمته ثم عاد راجعاً. فلما اتصل بسابور أن عسكره ولى مكسوراً امتلأ غيظاً وحنقاً على سرجيس، وأمر به فطرح في نهر أرسنيس حيث مات غريقاً. ثم إن عساكر يوسف الملك جازت سواحل البحر والبقاع حتى ولجت بلاد معاوية وشتت أهلها».

هذه هي حملة المردة الأولى حسب التقاليد والوثائق المارونية الراقية إلى أوائل القرن الرابع عشر.

وخلف يوحنا يوسف في قيادة المردة بلبنان. وفي عهد يوحنا هذا توالت هجمات المردة من لبنان، وكانت عاصمتهم بسكنتا، على أراضي الدولة الأموية مما أدى إلى تجديد المعاهدة بين الأمويين وعلى رأسهم الخليفة عبد الملك وبين الروم وعلى رأسهم يوستنيانس الأخرم. قضت هذه المعاهدة بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن لبنان. وحسب التقاليد المارونية التي أوردها الدويهي قاوم يوحنا أمير المردة هذا التدبير ووجه يوستنيان جيشاً تحت ستار محاربة العرب فاحتال قائد الجيش على يوحنا وقتله. وأقيم سمعان أميراً على المردة فرضخ إلى أمر الملك وانتقل إلى أرمينيا مع اثني عشر ألفاً من المردة. ومن هناك انتقل إلى طراقيا. هذا يتفق مع أقوال مؤرخي الروم أن قسماً من المردة نقل من لبنان إلى أرمينيا وقسماً آخر إلى طراقيا.

أما قول الدويهي أن سمعان أمير المردة هدم في أرمينيا السد النحاسي فهو صدى لقول مؤرخي الروم وخاصة توافانس وشدرانوس أن المردة كانوا سداً نحاسياً للمملكة البيزنطية فهدمه يوستنيانس بيده لمّا أبعد المردة عن لبنان. وهذا ما يعنيه الدويهي بقوله أنه بانتقال سمعان والمردة إلى أرمينيا انهدم السد النحاسي أي السد الذي كان يكونه المردة بوجه العرب. ومن ثم لا مجال للتساؤل أو التهكم الذي يبديه بعض الباحثين بخصوص كلام الدويهي عن السد النحاسي الذي هدمه المردة.

الوثيقة رقم ٤

«تاريخ الدولة العربية»
يوليوس فلهاوزن

لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة،

١٩٥٨م
ص٢٠٩

عبد الملك يحترم النصارى

ويذكر أوتيخيوس أنه (عبد الملك بن مروان) أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الذي كان إلى جانبها، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للنصارى. على أنه تعوذنا المادة للحكم في أمر علاقة عبد الملك برعاياه النصارى، ولكنا نعرف أن نصرانية تغلب لم تضرهم ولم تضر شاعرهم الأخطل في نظر عبد الملك على كل حال.

وثيقة رقم ٥

«تاريخ الدولة العربية»
يوليوس فلهاوزن

لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ١٩٥٨
ص٢٨٩، ٢٩٠

عمر بن عبد العزيز وإكراه النصارى على الإسلام

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس (في حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليقة) يذكر في ذلك ما يأتي: «ولما حدث في تلك السنة زلزال كبير في الشام حرم عمر النبيذ في المدن وأكره النصارى على الدخول في الإسلام، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية، أما من لم يفعل فإنه قتله. وقد استشهد كثيرون، وأمر بألا تقبل شهادة النصراني على العربي، وكذلك وجه إلى القيصر ليو كتاباً بين فيه عقيدة الإسلام أملاً في أن يقنعه بالدخول فيه». وفي الذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحقّ: أما الحق فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصارى أحسوا بذلك، ولكن عمر لم يكره النصارى على الدخول في الإسلام مهدداً إياهم بالقتل، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصارى)، وهذا ما لم يكن من عمر، لأنه مسلم حق. وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع التزاماً تاماً، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك. وقد حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح، ولم يكن يمنع إلا بناء الكنائس الجديدة، وهمّ عمر بن عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذه الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس يوحنا بغير حق، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج باب دمشق، وخصوصاً كنيسة القديس توما، لأن النصارى صارت لهم هذه الكنائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد فتح عنوة ولم يعط للنصارى في شروط الصلح. فلما لم يرض النصارى بذلك جعل عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عمّا أخذه الوليد من كنيسة القديس يوحنا.

وثيقة رقم ٦

«تاريخ الدولة العربية»
يوليوس فلهاوزن

لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة،
١٩٥٨
ص١٢٨

معاوية يوقف تقاتل النصارى العرب

وكانت الشام في نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة. وفي بيت المقدس نصّب معاوية نفسه خليفة، وصلى بعد ذلك على جبل الجلجلة، ثم صلى عند قبر السيدة مريم. ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالي الإنسان ما لذلك من دلالة. وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزاءه إزاء العقيدة المسيحية في أنه لما جاء إلى اليعاقبة والمارونية ليفصل بينهم، في نزاعهم في العقيدة، غرّم اليعقوبيين، بعد أن غلبوا أمام خصومهم، عشرين ألف دينار، أخذها منهم وأرسلهم. على أن معاوية لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام، وكان، من حيث هو سياسي، متسامحاً مع رعاياه المسيحيين وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه في عافية لا تقل عمّا كانوا عليه تحت حكم الرومان، وهذا ما يتبينه الإنسان من روح الروايات التي ترجع إليهم.

ويتكلم تيوفانيس (عن أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليقة) عن رعاية معاوية للنصارى، وقد برهن عليها معاوية بأنه بنى لأهل الرها كنيستهم التي هدمها الزلزال. وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نفوذاً، وقد أورثه ابنه يزيد، وكان سرجون نصرانياً.

الوثيقة رقم ٧

«تاريخ الموارنة»
الأب بطرس ضو

دار النهار للنشر- بيروت، ١٩٧٧
ج٢ : ص ٢٤، ٢٥

معاوية يوقف تقاتل النصارى العرب

ويتضح من كلام لميخائيل السوري أن عبارة «رهبان بيت مارون» في أيام هرقل أي بعد الرسالة التي أشرنا إليها بنحو خمس وعشرين سنة كانت تعني لا رهبان دير مارون في سوريا الثانية وحدهم ولكن رهبان أديار في منبج وحمص والبلدان الجنوبية. وهذا كلام ميخائيل السوري: «وعند ذهاب الملك (هرقل) إلى منبج (١٨) أتى لملاقاته البطريرك مار اثناسيوس يرافقه اثنا عشر أسقفاً... ولبثوا عنده يتباحثون اثني عشر يوماً. ولما طلب إليهم صكاً بإيمانهم سلموه ما كتب أعلاه. وبعد أن وقف عليه أثنى على إيمانهم وطلب أن يناولوه القربان ويقبلوا بالكتابة التي دونها والقائلة بطبيعتين في المسيح متحدتين وبإرادة وفعل وفقاً لكيرلس. ولما رأوا أنه منسجم مع نسطور ولاون (البابا) لم يقبلوه فاغتاظ هرقل. وكتب إلى كل مملكته بقطع أنف وأذني من لا يسلم بالمجمع الخلقيدوني، وبنهب بيته. ودام هذا الاضطهاد زمناً طويلاً وسلم رهبان كثيرون بالمجمع. وأظهر رهبان بيت مارون في منبج وحمص وبلدان الجنوب رداءاتهم فقبل جمهور كبير منهم بالمجمع واستولى على أكثر الكنائس والأديار. ولم يأذن هرقل للأرثوذكسيين (اليعاقبة) بالمثول أمامه ولم يقبل شكواهم بخصوص سرقة كنائسهم».

يتضح صريحاً من هذا النص أن رهبان بيت مارون كانوا في أيام هرقل، قبل استقلال كنيستهم بستين سنة أو أكثر، منتشرين في منبج وحمص والبلدان الجنوبية أي الواقعة جنوب حمص بما فيها لبنان يجمعهم اسم واحد «رهبان بيت مارون» ويؤلفون أسرة واحدة فهذا معنى كلمة «بيت».

وفي أيام معاوية وقبل أن تستقل كنيستهم بعشرات السنين اتحدوا، أو أطلق عليهم كمجموعة اسم كنيسة كما يتضح من نص قديم آخر:

جرت بين الموارنة واليعاقبة محاورة في حضور معاوية أي في أواسط القرن السابع. وقد جاء وصف هذه المحاورة في نص قديم نشرة العلامتان بروكس وشابو. ويقدر أن النص جزء من تاريخ وضعه عالم ماروني في الجيل الثامن أو التاسع وهذا هو النص:

«في شهر حزيران من سنة ٩٧٠ لليونان وهي السابعة عشر لقسطنس (٦٥٨م) قدم إلى دمشق أسقفا اليعاقبة ثوادورس وسبوخت وجرت أمام معاوية مناقشة بينهما وبين رجال من بيت مارون بصدد العقيدة. وإذ أفحم

اليعاقبة أمر معاوية بأن يؤدوا عشرين ألف دينار ورسم أن يلازموا السكينة. ومنذئذ دأب أساقفة اليعاقبة في كل سنة على تأدية على المال لمعاوية احتفاظاً بحمايته وحتى يأمنوا الاضطهاد من قبل أبناء الكنيسة (بيت مارون). والذي كان يدعوه اليعاقبة بطريركاً كان يفرض على كل أديار الرهبان والراهبات مبلغ المال هذا فيؤدونه كل سنة...».

وثيقة رقم ٨

«تاريخ مختصر الدول»
للمؤرخ المسيحي غريغوريوس
أبو الفرج بن العبري

دار المسيرة، بيروت (بلا تاريخ)
ص ١٢٤، ١٢٥

المنصور يحمي المطارنة من بعض أخصّائه

وكان المنصور في صدر أمره عندما بنى بغداد أدركه ضعف في معدته وسوء واستمراء وقلة شهية. وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه. فقيل له عن جيوروجيس بن بختيشوع الجنديسابوري أنه أفضل الأطباء. فتقدم لإحضاره فأنفذه العامل بجنديسابور بعدما أكرمه. فخرج ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان واستصحب معه تلميذه عيسى بن شهلاثا ولما وصل إلى بغداد أمر المنصور بإحضاره. فلما وصل إلى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية. فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن أشياء فأجابه عنها بسكون. وخبره بمرضه. وقال له جيورجيس: أنا أدبرك بمشيئة الله وعونه. فأمر له في الوقت بخلعة جليلة وتقدم إلى الربيع بإنزاله في أجمل موضع من دوره وأكرمه كما يكرم أخص الأهل. ولم يزل جيورجيس يتلطف له في تدبيره حتى برئ من مرضه وفرح به فرحاً شديداً. وقال له يوماً: من يخدمك ههنا. قال تلامذتي. فقال له الخليفة: سمعت أنه ليست لك امرأة. فقال: لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها. وانصرف من الحضرة ومضى إلى البيعة. فأمر المنصور خادمه سالماً أن يحمل من الجواري الروميات الحسان ثلاثاً إلى جيورجيس مع ثلاثة آلاف دينار. ففعل ذلك. فلما انصرف جيورجيس إلى منزله عرفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بما جرى وأراه الجواري. فأنكر أمرهن وقال لعيسى: يا تلميذ الشيطان لم أدخلت هؤلاء منزلي. أردت أن تنجسني. امض وردهن إلى أصحابهن. فمضى إلى دار الخليفة وردهن على الخادم. فلما اتصل الخبر إلى المنصور أحضره وقال له: لم رددت الجواري. قال: لا يجوز لنا معشر النصارى أن نتزوج بأكثر من امرأة واحدة ومادامت المرأة حية لا نأخذ غيرها. فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة. ولما كان في سنة اثنتين وخمسين ومائة مرض جيورجيس مرضاً صعباً. ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره. فخبره وقال له: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لأنظر أهلي وولدي وإن متّ قبرت مع آبائي. فقال له: يا حكيم اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة. قال جيورجيس: قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار. فضحك المنصور من قوله ثم قال: إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض التي

كانت تعتادني. فقال جيورجيس: أنا أخلف بين يدي أمير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر. فأمر بجيورجيس بعشرة آلاف دينار وأذن له بالانصراف وأنفذ معه خادماً وقال: إن مات في الطريق فاحمله إلى منزله ليدفن هناك كما أحب. فوصل إلى بلده حياً. ثم أمر المنصور بإحضار عيسى بن شهلاثا. فلما مثل بين يديه سأله عن أشياء فوجده ماهراً فاتخذه طبيباً. ولما استصحبه المنصور بدأ في التشاور والأذية خاصة على المطارنة والأساقفة ومطالبتهم بالرشى. ولما خرج المنصور في بعض أسفاره وصل إلى قريب نصيبين فكتب عيسى إلى قوفريان مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمسه منه. وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة وثمينة لها قدر. وكتب في كتابه إلى المطران: ألست تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته. فلما وقف المطران على الكتاب احتال التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال فأقرأه الكتاب وواصله الربيع إلى الخليفة ووقفه على حقيقة الأمر. فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى الطبيب وتأديبه ونفيه. ففعل به ذلك ونفي أقبح نفي.

وثيقة رقم٩

«L, Histoire de I,Espagne Musulmame»[٣٩]

Evariste Levi – Provencal
G-P Maisonneuve, Paris-E. J. Brill, Leiden

1950
Tome I, PP. 225-226-227-230

[٣٩] المقاطع المثبة هنا ترجمها مؤلف الكتاب عن الفرنسية من كتاب ليفي- بروفنسال.

ثورة المستعربين في قرطبة قومية لا دينية[٤٠]

المعارضة المستعربة في قرطبة (٨٥٠- ٨٥٩م):

جرى البحث عبثاً في التواريخ العربية، على اختلاف أزمنة تأليفها، عن أي إشارة إلى الأحداث التي أحزنت الجالية المسيحية في قرطبة قبيل وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني. ولسنا نعرف هذه الأحداث إلا عبر الروايات التي خلفها شهود العيان، وعلى الأدق بعض من شاركوا فيها. ويعود إلى دوزي الفضل في إماطة اللثام عنها في القرن التاسع عشر. لكن هذا العالم أعطى هذه الأحداث، في روايته لحكم الأمير الأموي الأندلسي الرابع، مكانة لا تتناسب حجماً مع بقية روايته.

فالدور الجليل الذي لعبه، كما سنرى، عبد الرحمن الثاني في تطور الحضارة وفي تقدم الحياة الاجتماعية والإدارية للأندلس، يكاد يتلاشى، إذا لم نحتفظ سوى بالإتهامات التي وجهها إيلوخو أو ألفارو إليه.

وقبل تفحص هذه الاتهامات، لابد من إيضاح الإسلام الأندلسي من كنيسة المستعربين في القرن التاسع (للميلاد): إن في هذه المسألة سبق أن بحثها بحمية متوقدة، وأحياناً حادة، بعض البحاثة الإسبان الموصوفين بأنهم عصريون، وبخاصة سيمونيه، في كتابه الموسوم بتاريخ المستعربين الإسبان، وهو كتاب جدير- فيما عدا ذلك- بأعلى درجات الاحترام والتقدير. وسنكتفي بإعادة سرد أهم ما جاء في صفحة حاول فيها مؤلف هذا الكتاب منذ سنوات أن يضع المسألة ضمن إطار موضوعي، إذ كتب عام ١٩٣٢:

«إذا كانت عهود بعض الأمراء الأمويين (في الأندلس) قد اتسمت باضطهاد الجاليات المسيحية، وبخاصة جالية قرطبة، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الاضطهادات لم يكن يمليها تعصب الأمراء، بقدر ما كانت تمليها اعتبارات سياسية. فهذه الجاليات كانت في الواقع البؤرة الأشد اتقاداً للحركات القومية التي نشأت بلا ضجيج بين نهاية عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) وعهد عبد الرحمن (الناصر). ولم يكن الأمويون حينئذ يبطشون بمشركين

---

[٤٠] محاضرة ألقاها الدكتور إدمون رباط يوم الأربعاء ٤ آذار، في قاعة مونتان في بيروت، في بداية سلسلة المحاضرات عن المسيحيين العرب، وقد نظمتها: دار الفن والأدب. ونشرت المحاضرة في العدد ٣١ من مجلة "المصباح"، في ٢٠ آذار ١٩٨١، بيروت.

بمقدار ما كانوا يبطشون في الواقع بمتمردين. بفعل الظروف تحول كل مسيحي إلى مشبوه، وفي معظم الحالات كانت الشبهة في محلها. ونتج من ذلك إسلام الكثيرين. لكن هؤلاء المسلمين الجدد أشهروا إسلامهم دونما إكراه، لمجرد تجنب الشبهة التي حامت عليهم بجريرة أبناء ملتهم المشاغبين. غير أنه كان ينبغي عليهم، حالما يسلمون، ألا يرتدوا عن إسلامهم. فكان المرء يستطيع أن يظل مواطناً مسيحياً في دولة الإسلام الإسباني، لكنه لم يكن يستطيع بعد إسلامه أن يرتد عن الإيمان الإسلامي، دون تعريض نفسه للعقوبة العظمى. ولم يكن شتم دين المتنصرين مباحاً. وشهداء قرطبة في القرنين التاسع والعاشر، لم يكونوا متمردين على محاولات إكراه ديني، بل كانوا مرتدين أو صوفيين، ولم يكن القضاة المسلمون يدفعونهم إلى جلادهم، إلا بعد أن ينتابهم شعور الاشمئزاز، لأنهم كانوا يرفضون التراجع عن الشتائم المهينة التي كالوها إلى الدين الرسمي للبلاد.

وفي جميع الحالات تقريباً، استنكر زعماء الجاليات المسيحية في إسبانيا أشد الاستنكار هذه المظاهر التي كانت تصدر عن متحمسين»...

...وفي طول تاريخ الإسلام في القرون الوسطى، لم يصدر قط حكم بدين متهم من دافعي الجزية دون مشاورة دار الفتوى مسبقاً، والفتوى التي كان يصدرها المستشارون الشرعيون، بناء على استشارة من قاضي قرطبة الكبير أو الأمير نفسه، هذه الفتوى لم يكن الأمير يستطيع انتهاكها دون أن يستهدف للنقمة الإجماعية. وطالما أن دين النبي قد أهين، فإن العدالة كانت تتخذ مجراها، أكان المتهم مسلماً أم غير مسلم. وفي هذا الشأن، ليس من نافلة القول أن نشير إلى أنه في الوقت نفسه الذي كانت فيه موجة الشهداء المتطوعين للموت في قرطبة في أوجها عام ٨٤١م (٢٣٧هـ)، حكم بالموت على مسلم قرطبي، وهو ابن شقيق (أو شقيقة) عجب إحدى الجواري الأثيرات لدى الأمير الحكم الأول، وبعد استشارة شرعية أصولية، على الرغم من مداخلة عمته (أو خالته) الملحة لدى الأمير، لأنه أظهر الزندقة والاستخفاف بالدين الإسلامي. وفوق هذا، فإن الوثيقة العربية الإسبانية الوحيدة التي وصلت إلينا في موضوع الشهادة الطوعية، تشير تحديداً إلى أن الحكم بالموت لم يصدر إلا بسبب إنكار إلوهية الله أو رسالة محمد.

الفهرس

الإهداء	٢
الفصل الأول: بلى...اضطهد المسيحيون ثلاثاً؟	٣
الفصل الثاني: من يحمي من...المسيحيون العرب أم الغرب؟	١٠
الفصل الثالث: المسيحيون العرب: لم يحمهم الغرب فهل تحميهم الدولة العربية؟	١٨
الفصل الرابع: المسيحيون العرب: أية دولة تناسيهم وتحميهم	٢٦
ملاحق وتوثيق	